كرم ملحم كرم

الشيخ قرير العين

اقرأ ٣٢

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٣٢ — يوليو سنة ١٩٤٥



١

— خذ قلبي مني ودعني ، أريد أن أحيا بلا قلبي !

وغلبها دمعها فأسندت رأسها إلى الجدار تمطره عبراتها والليل يلتحف عباءة دكناء، والنجوم تغور أو تكاد تغور في أعشاشها ، والسكينة تبسط ملاءتها كأن الكون في سجدة التقى والخشوع .

ووقف بجانب تلك الملتاعة ، الواهبة قلبها ، فتى يصيح فيه الشباب . ينظر إليها وفي عينيه وميض الخشية ، وفي فؤاده غصة الجزع . و بحث عن كلمات مصطفاة تنجع في تلطيف الحدة وتبديد اليأس فما اهتدى منها إلى سوى القول : أيكون حبي لك الباعث على التياعك ؟ . . . صارحيني بالحقيقة . لست أريدك تشقين في سبيلي !

فما رفعت عن الحائط رأسها ولا التفتت إلى مخاطبها . على أنها تمتمت بصوت يزخر بالأشجان : أنا منك في ويلين ، ويل عليّ في حبك وويل في هجرك . فلا أقوى على احتمال عبء الهيام بك ، ولا أملك الجرأة على الصدود عنك . ثم إن . . .

وهشم دمعها مقالها فانقطعت عن إيضاح ما تتقد به أضالعها
وود مَن تحادثه لو يقف على جلي خاطرها فاستفهم : ثم ماذا؟

فأجابت وهى لاتبرح فى وقفتها : أبى درى بنا . ولقد هددنى
بالقضاء علينا معاً . فكن على حذر من أبى . إنه لقاهر عنيد !

فأثارت ضحكه وقال : أيخيف أبوك ؟

فأوجعها أن يستخف بأبيها وانتصبت قامتها وجمد دمعها
وقالت بغضب : أدعوك إلى الحذر من أبى . فإنه لمغامر بطاش .
لا تحسبه يصبر على المهانة لضؤولة جاهه وهو الممسك من الكرامة
منتهاها . فالتفريط فى العفة والسمعة لا منفذ له عنده إلى
عفو وسماح !

فجبهها بضحكة أمضى دل بها على ازدراء قصى ، وكأنه ثلم
فيها أنفتها فصاحت . لا تتوهم كرم الطبع فيك وفى آلك دون
سواكم من الناس . فاذا قبضت أيمانكم على الثروة فما أنتم أرفع
قدراً ممن هم دونكم أحساباً . ففى الأكواخ من النبل ونصاعة
الجبين ما لا تحفل بمثله قصور جماعة وافرة من المترعمين !

فعض شفته حتى كاد يدميها وقد أحس بالصدمة تلهب جبينه
وترقص حنجرته . وخشى فلتة لسانه فقبض على معصم الفتاة

وهو يقول بدماثة العتبي : نظيرة ، أخطأت وحق عينيك تفسير مقصدي . أبوك رجل فضل ومكانة ، فما حاولت النيل من عصمته . غير أني لا أومن باستطاعته التغلب علينا ونحن ندين بدين الحب الأسمى . ومن كان الحب دينه يا نظيرة فالجبابرة حتى الجبابرة ، ينحنون أمامه على طغيانهم و ينكسون دونه السلاح !

تخفف من غضبتها وهو يحدثها عن سلطان الحب . بيد أن قلقها على مصيرها مابرح يهزها في مستقر طمأنينتها فقالت : لن نكون سعيدين في حبنا يا بهاء . فالجهمة ترين علينا في يومنا وفي غدنا . وخير ما نعتمد الانفصال. فلا تراني ولا أراك . هذا الحب يأبى على قلبي الراحة وعلى عيني الغمض . فإني منه لفي بحران . أبداً أخشى الفضيحة وأبداً ينهشني العذاب . وأنت . . أنت . . لا أثق بدوام مودتك . فكلما فكرت فيك راعني أن تكون رجراجاً كالزئبق ، وخيل إلى أني أقبض منك على الماء !

ونضا مقولها عن مخاوفها . فتنهد بهاء وقال بصوت تختلج فيه الرزانة الطامعة في إثبات صدقها : نظيرة ، أنقيم أبداً على ذعر ولهفة ؟ . . لا أسمعك إلا متألمة ناحبة . أنت غير مؤمنة بهيامي

بك . فيتراءى لك هذا الحب المنطوية عليه نفسى نفاخة وشيكة الانطفاء .

إنك لعلى إثم حاطم فى سوء ظنك . فما أقبلت إليك مخادعاً أفاكاً ، بل جئتك وضميرى فى فمى ، وقلبى فى يمينى . ولا أبرح على عهدى ، وإنى للمجرم إذا خطر لى أن ألهو بك ثم أسلوك . فأنت على الأمد فى أرفع منزلة عندى . وهو منطق طال ترديدى إياه فى مسمعك وأنت ماضية فى ارتيابك بى وحذرك منى !

قالت وهى تجاهد نفسها فى رفع الاضطراب عنها ولا توفق لبغيتها : بهاء ، لم يكتب لنا زمننا الهناءة فيما دعوناه حباً . إن ما أكابد من ضنى يكرهنى على خلع ميولى عنى . فانس من عاهدتها على الإخلاص . أنا ما دعوتك إلىّ لسوى معالنتك رغبتى فى القطيعة . فلقد بلغنا هذه المرحلة من الحب على أشواك ولم نعرف من السعادة غير نزوة عسيرة . فلننكص عن المطلب الوعر . يكفيك ما عانيت من مذلة فى هذا الحب المعتل الركن عُدْ إلى أهلك إن أهلك لمن الصفوة فلست بحاجة إلى فتاة حقيرة مثلى لا ترفع من قدرك ولا تليق بمقامك فإن سموها إليك يغض من منزلتك ولا ينهض بمنزلتها . فتظل أبداً على منقصة وشين !

فصاح من شفتين تضطربان ارتباكا وألماً : ينغص عيشى هذا الحديث الجافى . لو كنت أقرأ عهودى على الكفرة لآمنوا بسلامة طويتى . أما أنت فلا تؤمنين . علامَ تريديننى كى تبيتى على يقين من صدقى وطهر ضميرى ؟

— أريدك على التنائى ، فيلفُّنا النسيان بحجاب صفيق !

— أنا لا أقوى على النسيان ؟ أتقوين عليه أنت ؟

— أتعوّده إذا بادرتنى به !

— وما يفيد النسيان ؟

— أنجو به من سقم روحى وسهر بالى !

فتأوه وقال: ما أشدك علىّ فى إحساسى، أيرضيك التنائى ؟. است والله أطيق له ظلاً ولا يدنينى إليه هوى . أحببتك وسأقيم على حبك حتى يجف هذا القلب ويصير هذا الجسم إلى تراب وستتضمخ بعد الموت بعبيرك روحى ناعمة بما خلع عليها حبك من طيب . وإن مائدتى لتفخر بجلوسك إليها وتشع بسناك دارى . وإذا حاول أهلى سلخى منك فلا كان أهلى . وإن يطب لأبيك احراجى والحؤول بينى وبينك مخافة أن أتمتع بك ثمرة يانعة وألفظك نواة ، فما أوهى حاسة الإدراك فى أبيك . إن من أقسم

لك على الوفاء حتى يطويه الكفن لا يبرح ولن يبرح منك على انحناءة الإخلاص والإجلال .

وملك من بلاغة الإقناع ما زحزح الفتاة عن بلبالها . فسددت إليه نظرات لو حبتها الغُبشة نفحة الجلاء لأيقن أن بيانه حوى من ذوب السحر ما راع وفتن . ولم تتكلم نظيرة كأنها أصيبت بالخرس، بل كأنها لا تزال ترقب هذه الشوادى. وضايقه سكوتها فأعلن بحدة العاشق السخى بقلبه على ما تبيح العطية السمحة وتربة أبى وأجدادى ، سأنقض الساعة على أبيك أهزه فى فراشه وأدعوه ليعقد لى عليك . وإن أبى طرت بك إلى حيث لا ترانا عين وقضينا العمر بمنجاة من الكدرة !

فهتفت به : أتفعل ؟

— وما يعوقنى عن الشدة أبلغ بها مأربى ؟

فأعلنت بمضاء : أنا أمنعك عنها ؟

— أفلا يرضيك أن نعيش معــاً بعيدين عن الشغب والكرب ؟

— إنى لأمانع ما دام أبى لا يرضى !

— سيرضى أبوك. على أنك لى فى الحالين، فى سخطه ورضاه!

فأوجعتها منه الاستطالة وقالت بنزق : دع عنك التباهى بطول باعك . إذا رفض أبى فمن المحال أن يلتئم لنا شمل !

— وحبنا ما يكون منه أيتها الجاهلة ؟

— ليمت . موته خير لنا من حياة كلها إيلام . فما دام أبى لا يرضى فلا تطمع فى أن ترانى بجانبك مع كل ما فى نفسى من حنين إليك !

— نظيرة !

— هذا عهدى . لم يدفعنى أبى إلى الوجود كى ألطخ مشيبه بالأتراح فهو يفرض علىّ فى الحياة نهجى ولست أحيد عن طريقٍ يرسمه لى !

— و إذا قضى علينا بالانفصال ؟

فأجابت بشموخ قهار : كلمة أبى شرعة مسنونة فلا مرد لحكم أبى !

فغاظه اعتصامها برأى أبيها وقال بصوت خشن تعلوه الكمدة : أنا منك فى حيرة . ترتابين بحبى لك فأعرض عليك الزواج ، فتقيدينني بأبيك. هذا دلال ظلوم ، غرك منى الهيام بك فبطرت

هلا علمت أن بين جنبي قلباً لا يطيق الجور ولا يأنس بالتجنى ؟

فكان جوابها مبرماً : مشيئة أبى لا تنقض . فاذا أبى أبيت وقد أجنى فى الممانعة على نفسى . فأدوس آمالى وأبعثر أزهارها فى كل ريح . إلا أنى لا أصدم أبى فى رغبته وأنا أوثر قهرى على قهره . ولن أقوده إلى الهضيمة يكتوى بها على مدى العمر . قلبى لك . وكل نبضة فى دمى تنبض بحبك ، إلا أن مصيرى رهن مشيئة أبى !

فهز برأسه وقال بحسرة : وهبت لى نفسك ولم تهبى لى منك شعرة . كنت أعرض عنك وأبقيك لهذا الأب تتمرغين فى رضاه ، ولكن شغفى بك يأبى على أن أعاندك . سأخاطب أباك فيك وليس من مخاطبته بد . غير أنى كنت أعتقد أنك ستنطلقين فى أثرى حتى على مكابرة أبيك . وأنا أعرف أباك وما خفى على كرهه لأسرتنا . فإن ضيق طبعه يشدّ به عن اقراره إيانا على سيادتنا . فشنها علينا حرباً لا اين فيها ، يحسدنا على النعمة وينطوى لنا على حقد مبيد !

« أجل ، سأخاطب أباك فيك وإن نالنى من كيده الذل . فإن لؤمه لينضنض فى كل كلمة يقطر بها لسانه ، وفى كل نظرة تنفثها

عيناه . لا تحاولى إقناعى بأنى على وهم وظنة . أنا بأبيك أدرى الناس ، أما وأنت تكرهيننى على المثول أمامه منحنى الهامة كالذليل ، مبسوط الراحة كالسائل ، فسأمثل أمامه ابتغاء مرضاتك . ألا فلينعم هذا السيد الفخم بعظمته وسلطانه . فقد عكست الآية وبات السيد مسوداً والعبد طاغية يأمر فيطاع !

وابتعد عنها لا يريد أن يسمع منها كلاماً . فقد نزل على حكمها وسيحقق مبتغاها مع كل ما يلقى فيه من غضاضة وامتهان. غداً يقف فى حضرة أبيها بعد ما كان أبوها يتشهى الوقوف أمام جد بهاء وأبيه ولا يوفق للأمنية .

ونادت نظيرة الفتى المبتعد عنها كى يبقى لتفضى إليه بما لا يزال يرسب فى حناياها من أشجان فلم يرجع إليها . لقد مضى فى طريقه دامى النفس ، مرضوض الجنان . غير أنه وطّن النية على فكرة واضحة سديدة . نظيرة له مهما اعترضه من صعاب . فما تعود الوقوف فى مفترق الطرق على ارتباك . إن طريقه لمشقوق أمامه ، فليحذر سليم العياش ، والد نظيرة ، من معاندة المقدور !

٢

هذا الغنج فى الخطو ، والدل فى اللفتة ، لم تعرفهما بيت مرى فى سوى زهرتها الغيداء نظيرة العياش، نظيرة المتوهجة فتوناً وندى فى بيت مرى العارمة ، الممسكة بقمة ناتئة من قمم لبنان الخضر مخافة أن تتدحرج إلى الأزرق الوجراج .

والأزرق الرجراج من بيت مرى بساط ممتد الرحبة ، متصل الأطراف بالأفق حتى ليختلط البحر بالسماء . فتقف العين حسيرة عن ادراك منتهى الزرقتين . كأن السماء والماء دفتا كتاب على وحدة فى المتن واللون ، انشقتا عن مباهج الأرض المنمقة السطور المبرقشة الكلمات .

ونظيرة العياش أغنية عذبة النغم . نشوى القرار ، فى قدها الريان وعذو بتها المخصاب . تمشى فتجر وراءها موكباً من عيون رصّعها الأعجاب ، وتنظر فتنقل عيناها السحر إلى قلوب أقلقها دبيب الغرام .

وخشيت الأم على ابنتها من ذوى اللحظات الخبيثـة فخاطت لها فى قميصها خرزة زرقاء تقيها العين الشريرة الجوفاء .

وراع الأب ما يرى فى ابنته من تباشير الطلالة ، وما يقع فى مسمعه عن نظيرة من مخمور الثناء فاقبل عليها يقول بجفاف النذير: أزقة القرية لا تكثرى من الجولان فيها . والسوق لا حاجة بك إلى ارتيادها . مجالك البيت وغابة الصنوبر ترافقك إليها أترابك . حسبك من دنياك هذا المدى !

ورقص فيه السخط الرعاد : فالراعى يغار على خرفانه من غدر الذئاب . وسليم العياش ليس يجهل بيئته ولا ما ابتلى به زمنه من رث كريه. فما نعمت به نظيرة ابنته من حسن نضيج أقلق باله ، فتولاه الوجوم . إن فى هذا الجمال الصياح لاغراء وفتنة . ولا بد لمن يملكه سلطان الرواء الصفى من نصب الأحابيل ولا بد للزهرة الحائمة عليها الفراشات الولهى من إباحة حلاوتها لمرشف أثير .

ولا تقاء السقطة وقف سليم العياش من ابنته مفتوح العين . فمنعها من المخالطة وبراح المنزل . بل هو اختار لها بنفسه صواحبها يحاول أن يسد عليها منافذ الضلالة . وبحث لها عن قرين كفى وما ارتبك فى الاصطفاء . سيزفها إلى ابن شقيقته نصير الهانى المناضل فى المكسيك بجُمْع يديه لحشد المال . ولم يشخص وحده

إلى أميركا يغرف منها الذهب فقد رافقه إليها شقيق نظيرة ، سعيد العياش الفتى المقدام ، الوسيع المنكبين على رجولة ، المديد القامة على مضاء .

وما دفع سليم العياش ابنه إلى أميركا عن رضا ، بل شاء أن يضمن لهذا الابن البادى الصولة ، غداً وارف الظل لئلا تسطو عليه الحاجة ، فأطلقه إلى بلد الهمة يجالد فيها البؤس . فلا يبيت فى القرية فلاحاً منبوذاً يسوقه آل غندور فى خدمتهم كما شاؤوا. فيتفصد جبينه عرقاً و يظل فى شهوة إلى اللقمة ولا يستر بدنه قميص.

لا ، لا يريد سليم العياش لابنه الفتى الواعد هذا الرسوخ فى العبودية . فيكفى ما كابد الأب من الشظف الدميم . وماذا لقى ؟ . . . حاول أن يتنفس وأن يبوح بنفثات صدره فتخلى عنه آل غندور ، سادته ، واضطهدوه . وهال سليماً أن يشبهه ابنه فى مصيره فأبعده عن القرية . فلن يقضى سعيد أيامه فى بيت مرى يجرع الضيم ، بل سيغزو أميركا برهافة عزمه و يعود منها شاهراً لواء التوفيق . فيبنى فى قومه مجداً يضارع مجد آل غندور ، وقد يكسفه . و ينشئ الدور و يشترى الحقول . و يتوفر على خدمته من يريدونه على خدمتهم . فالجفوة المقيم عليها سليم

العياش ليس يرضى بها لولده وفى الدنيا ميدان جهاد لن يكبو فيه السعيد .

وسليم ، وقد نقم عليه السادة لاستطالته عليهم فى ساعة كافرة معربدة وأقصوه عن الاشتغال فى أرضهم ، حشد فى كوخه أقرانه يوغر صدورهم على السادة فتفتحت العيون ، وشعر القرويون بالإجحاف المقيت ، الا ان الفريق الأكبر قتل شعوره وظل متربعاً فى ولائه لآل غندور ، يطعمهم لحم أكتافه وكرامته ، متجاهلا رسالة سليم العياش وقد رأى فيها ثورة تحضّ على هدم التقاليد

غير أن سليماً مع ضؤولة أنصاره نم فى بيت مرى بجاه رحيب فالأحاديث فى السهرات ، إلى جنب الموقد ، أو على المصاطب تحت أشعة القمر الهانئة ، تدور عليه . فبات فى سمع القرية وبصرها . وزاد الألسن لهجاً به رونق ابنته . فمن هو الوسيم الطالع المكتوب له الظفر بهذا الحسن النضيد ؟

وتلفت أبناء القرية بعضهم إلى بعض ليهتدوا إلى الفارس الجدير بنظيرة العياش فلم يجدوا بينهم الفتى المحظوظ . بلى ، سمعوا والد نظيرة يطنب فى امتداح ابن شقيقته نصير الهانى ، المقتعد

منكب الهجرة ، فأدركوا أن نظيرة لنصير . ولن تشق ابنة سليم العياش فى زفافها إلى ابن عمتها الرائع فى الثروة والشباب والحمية . فهو فى المهجر منذ سبع سنوات ، وقد وافى أمه فى هذه السنوات السبع بما ضمن له الكروم والحقول الخصيبة الجنى ، كأنه — يخزى العين ! — فى دار هجرته على نبع دفيق .

وخيال هذا الاصطفاء ركدت الشهوات ، وبردت الأشواق ولكنه جمر تغلف برماد . وإذا همس يعلو فتجحظ له العيون وتضطرب الضمائر . يقذف به الفم إلى الأذن فى وشوشة خرساء ويترجح على ريبة فى ما يبث . هذا نبأ لايجد المصدّقين لوعورة أرضه وعسير وقوعه . فمن المحال أن تهوى نظيرة العياش أغنى أغنياء بيت مرى ، بهاء غندور . وإذا ماج فى صدرها هواه فهل يجيبها الفتى إلى خلجة الحب فيها وهى من أرض وهو من سماء ؟

وماذا أبقى أبوها من مثلبة ولم يفضح بها آل غندور ؟ . . . فإن تكن نظيرة أجمل فتاة ، وإن يكن بهاء أجمل فتى ، فهل يتصافى الماء والنار ، وهل درى سليم العياش بهذا الحب العجيب؟

ولكن الإشاعة تتردد وقد هبّت ريحها . فتحدث بها الرجال تحت سقوف الدكاكين ، وفى الساحة ، وعلى السطوح . وتناقلتها

النسوان على المصاطب ، وفى الأزقّة والتنّور . وتلبد جو بيت مرى بالغمائم السود كأن أمراً خطيراً قد نشب .

وبات الجميع ارصاداً . فهاج الفضول كل نفس وأضحى بهاء فى حلقة من المتجسسين كيفما اتجه والتفت. وجالت الأبصار فى نظيرة تكاد تسدّ عليها مجال التنفس . فهى فى نطاق من العيون. و إذا الذى أنكره القوم وترددوا فى تصديقه، حقيقة ساطعة الوجه . بهاء غندور يلقى نظيرة العياش فى غابة الصنوبر . فمزقت الألسن حجاب الهمس واقتحمت المصون . فما بقى فى القرية من لم ينضّ فى سمعه الخبر ، عدا أنسباء نظيرة . فقد تحامت الكياسة تخديش آذانهم بالنبأ الصافع . غير أن النظرات عند ما تجول فى سليم العياش تبدو كأنها سياط لاسعة . وهال العياش وقعها فودّ الوقوف على سرها . وعجز بعضهم عن الإمساك فشفع النظرة بابتسامة خبيثة جُن منها والد نظيرة وكاد يرزح تحت عبئها مكسور الجناح .

وسأل نفسه وهو يتحرّق : ما يحمل القرية على جبهى بهذه الأشواك ؟

ودهمته الخواطر الممضة . وملكه شوق ملحاح إلى إماطة

اللثام عن الأحجية . وفزع إلى صديقه نادر الصراف وهو خدين يعتمده فى الدواهى و يثق بمكين ولائه : فزع إليه مستجيراً من و يل يشعر بخطره و يجهل وجهه . قال : نادر ، جئت إليك عائذاً بك . فى جو بيت مرى ماليس يرضينى . فإنى أحس بما يخنقنى ولا أدرى ما هو . فأنقذنى مما يخنقنى يرحمك الله !

وظهر فيه السقم . فهو عليل الروح . وارتاع نادر الصراف وهو يتبين فى سليم العياش الوهن وعمق الغضون . ولكن بمَ يحدثه وما يقصّ عليه ؟ . . . أيبلغه ما تلغط به الشفاه من أمر نظيرة وبهاء غندور ؟ . . . إنه ليطحن عظمه : فقال سليم بذلة : نادر اصدمنى بالحقيقة على هولها فبى من الرجولة ما يهب لى الصبر على المحنة . ولست أطيق أن تزدرينى العيون دون أن ينجلى لى سر استخفافها بحليفك وأليفك . إنى لزاحف إليك على استعطاف أسألك فى أمرى ، فانفض عنى لهفتى وارتبا كى ، رحماك !

وكاد هذا الشيخ الهازىء بنوائب الزمن ، وقد كافحها وناورها يرشّ الأرض بصبيب الدمع . فأى لطخة تشينه ؟ . . . لا ريب أن هناك لطخة ، ولكنه يحس بها ولا يراها . كالعاصفة الهائجة، يبدو أثرها ولا تلوح يدها .

وما انتفض جأشه بريبة تطول ابنته . نظيرة اسمى من الظنة هذه ناحية يستوى فيها على أمان . ورقب من نادر الصراف أن يفصح عن المكنون . ورام نادر التجاهل يمضى فيه . فليس يدرى . غير أن الشفقة على صديقه الذليل الوقفة أدركته ، فقال بغمغمة يتمطى فيها البيان الحسير : سليم ، داؤك فى كبدك . نظيرة لا تتنكر لبهاء غندور !

فشكّت النبلة فى النحر . وغار سليم العيّاش فى نفسه حتى كاد يمحى . ماذا يسمع من مبيد ؟ . . . غير أنه أبى التصديق . محال ، محال هذا النبأ الهادم . وعلت صيحة سليم قاصفة تدمدم باستفهام ساخر : ابنتى لا تتنكر لبهاء غندور ؟

فهو يرتاب . ليس يؤمن بأن ابنته تهيم بعدوه وابن عدوه . إنها لفرية يرجف بها خصومه لغمز صلابة مكسره . واشتعل حنقاً وإرعاداً يكيل الشتائم طفاح فمه . وخشى عليه نادر الصراف فصاح به : أبا سعيد ، على رسلك ، قد يكون النبأ من نسيج الكارهين ، حاكوه على بهتان ومين . نظيرة لا تتسفل إلى تشويه عرضك ووصمك بالمهين الخسيس !

ولكن الضمادة لم تذهب بألم الجرح النغّار . فالمنعة الرائعة

فيها نظيرة فى مقعد أبيها التَوَتْ حصانتها وطغى عليها سوء الظن. وكل جهد أبداه نادر الصراف فى سكب البلسم على مغرز الطعنة لم ينجع فى تبديد الصعقة . فتبدلت ملامح سليم العياش وخانه المنطق . فهو حطبة يابسة تلتهمها رزيئتها .

وودّ أن ينفى عن ابنته التهمة ، غير أنه قرأ ، أو تراءى له أنه يقرأ ، فى عينى نادر الصرّاف الكفران ببراءة نظيرة . حتى أعز صديق يساوره الشك . فانطلقت من حنجرة سليم الجافة ، الشائكة البحاء ، حشرجة مقضقضة كادت تخنقه . قال : نادر إن تكن ابنتى شوهت معصوب الطهارة فى جبينها فإنى لمضرم فيها النار على مرأى من القرية كلها . وضح لى الآن سرّ النظرات المسددة إلىَّ . أنا فى مهب مصيبة جائحة . ولكنى وأنت تعرفنى ، لست بمن تلطمه الإهانة و يثوى على اللطمة . لا وحق أبيك ، فالشرف الموصوم بالخزية لا يغسله عندى غير الدم ؟

واستجمع قواه ووثب إلى منزله شرراً يتطاير . ولم يكن يتبين طريقه ، بل لم يكن يدرى أيمشى أم يطير . وضاقت الأرض عن غضبته . ومع سعيه لغمض عينيه لئلا يرى من حوله بوجوههم الشامتة ، الهازئة ، كان يخيل إليه أن بيت مرى بأجمعها ، من

شيوخها إلى شبانها ، إلى صغار الأولاد فيها ، عيون ساخرة ، ضاحكة على خبث ، نافثة منبوذ لؤمها واحتقارها عليه !

٣

— يا ملعونة الوالدين !

وهاج سليم العياش كالضوارى فى وثبة الروع وهو يدمدم لعنته . واهتزت فى يمينه عصاه يكاد يقرع بها رأس ابنته وقد قبضت يسراه على عنق نظيرة توشك أن تخنق فى الصدر الأنفاس. وارتجف سليم فى ثورته الأكول لفرط غضبه واضطرابه . وطارت إليه امرأته مذعورة ناتئة العينين ، فما اعتراه ؟ . . . هل فجأه مسٌّ من جنون ؟

ووقفت بينه و بين ابنته تحول دون انقضاض الضربة على الفتاة وتقول باسترحام لاهث بكىّ : ماذا جنت كى تقتصّ منها ، أى ذنب تأخذ هابه ؟ .. اضربنى بعصاك وارحم ابنتك . أنا الجانية . حطم رأسى وادفع عن نظيرة الويل . عفوك عنها ، الأمان !

فكاد يتفزر . وأدار وجهه يمنة ويسرة كى تنفرج حنجرته عن فورة احقاده . وصاح بامرأته صيحة المختنق : ابتعدى أيتها

البلهاء وإلا نزلت بك الضربة . تهاونك فى تهذيب هذه الشقية ومانا بالعار . اقسمت على التنكيل بها . فالفضيحة فى بيت مرى صبغت مشيبنا بالشين ابتعدى . هذه العائبة قليل فيها الذبح !

فرفعت يديها تتلقى بهما العصا وتحاول انتزاعها منه . قالت بلغة الدمع المظلوم : من سعى بها إليك ؟ . . . كذب المفترون . ابنتك ليل نهار فى المنزل . وأى إثم تلصق بها ؟ . . . أتجهل فى بنى قومك الاختلاق والبهتان ؟ . . . اضربنى ولا تمسها بأذى . اسفك دمى قبل أن تستل شعرة واحدة من رأسها . هل رزقنا عشرات الأولاد كى نجازف بهم على هوانا ؟ ... من عندنا ؟ . . هذه وذاك . هى بيننا وهو فى الأقاصى . لا ضيّقها الله على مخلوق !

فركلها برجله فتدحرجت فى الأرض كالدولاب . غير أنه ما أهوى بالعصا على ابنته الساكنة بين يديه كالمجرم الذليل ، المشدود الوثاق ، حتى كانت امرأته قد انتفضت من سقطتها واندلعت إليه تتقى الضربة بيمينها فكادت تتحطم يمينها . وأعولت فأقلقت الحىّ فأطلّ الجيران وما تعوّدوا الن
فى كوخ سليم العياش . ورآهم سليم مقبلين فأفلت ابنته واستطاع

أن يكره نفسه على البسمة وهو الضنين بسمعته . وتظاهر بأنها غضبة عارضة . ثار فى لحظة وهدأ فى لحظة . فلا سبيل إلى التدخل فى مصالحه والاستشفاع فى منكوب .

وانكفأ الجيران معجبين بحدة ذهنه وسعة دهائه وما خفيت عليهم حيلته . شاء تأديب ابنته عن زلتها وقد أجابت بهاء غندور إلى هواه . وأقبلت امرأته تدافع عن ابنتها فانقضت عليها العصا وتعالى فيها الصراخ وحالة الأم والابنة تكشف الموقف بجلاء . فالابنة فى خجل الخاطىء والأم فى عواء الملسوع ، المحطم اليد.

وما خلا المكان من الغرباء عنه حتى عاد سليم العياش إلى ابنته يقبض على معصمها بغلاظة ويجرها إلى زريبة الأبقار . والزريبة فى القبو المشيد عليه المنزل . وأغلق سليم باب القبو وخلا بابنته فى الأعماق . فلا يُسمع صوت مهما علا ، ولا يسرع إلى النجدة إنسان.

ورمى نظيرة فى وسط الزريبة ، على الروث ، وجثا على صدرها وقد اخترط خنجره يعده لبليغ المقال . وهدر بعربدة ليس بينها وبين الجنون رقاقة : نحن هنا وحدنا أيتها المفضوحة . حدثينى مليّاً عما بينك وبين ابن غندور من مودات ، منذ كم تعرفينه ،

وماهو مدى صلتك به ؟... أجيبي دون إبطاء. واحذري الكذب. فالكذب يقودك إلى حيث تسكن الخوافق. أنا بغنية عن البنات!

ولمع خنجره يحاول النطق . وأحست نظيرة بالنصلة الباردة تخز عنقها فلم ترهب مع انتشار البرودة فى عروقها . قالت برباطة جأش مفعمة بالصفاء : أبى ، أنت حر فى مصير ابنتك . إذا شئت أن تسفك دمى فليس من يصدك عن مبتغاك !

فروعته سكينتها وقال بغيظ يحتدم : أنا أدرى منك بمبلغ سلطانى . كل ما أدعوك إليه إيضاح موقفك من ابن غندور . أى رابطة توثق بينكما ؟

فأعلنت بصدق لا تعروه رهبة : سأطلع أبى بأمانة على خفى أمرى. بينى و بين بهاء غندور صداقة وولاء بريئان ، لا يشينان فتاة تحدرت من رجل عطر الأحدوثة !

فأدركه الجريض الناخع وارتجف . وشدت يده بشعر ابنته وارتفع خنجره على أهبة للبطش . وعادت النصلة إلى بريقها المتوعد فلم ترتجف نظيرة كأبيها ، بل تابعت مقالها بوعيها المطمئن إن يكن فى ما بدر منى ما يؤلم روح الحفاظ فى أبى ، فليغسل بدمى شرفه المثلوم . نظيرة العياش لا ترتضى إذلال أبيها العالى الجبين ! .

فناحت فيه زفرة المقهور : قتلتِ أباك يا ناقصة . هل غاب عنك ما بيني و بين آل غندور من جفاء ؟ . . . اتصالك بهاء لطمة على خدى وجمرة فى قلبي . لقد درت بكما القرية وعقدت عليكما الأقاويل . فالجميع ينظرون إلىّ بازدراء . هم يعيروننى بشماتة وقحة سفالتك وهوانك . وجدير بى للخلاص من المستهينين بكرامتى أن أبيحك لخنجرى ينتقم لى منك !

وحاول إغماد الخنجر فى نحرها فما أطاعته فى قتلها يده . لماذا الفتك بها وهى لا تبرح تعتصم بطهرها ؟ . . فلو بدر منها ما يهدم مصون العفة فيها لبات فرضاً إخماد أنفاسها . وتولته حيرة ممضة وشعرت نظيرة بتردده فقالت وهى ممسكة على هدوئها : كل ما أصبو إليه ، وأبى يميل إلى إراقة دمى ، إبلاغه أن شرفه لا يزال يرتع فى جمامه . ما امتد إليه ظفر بخدش . ولا تجرأت عليه عين مقحام !

فزادت فى ارتباكه . وخارت قواه حيال الملمة الطارئة فسقط الخنجر من يمينه وندت جبينه برودة الموت . وتأوه . لقد ناء صدره بأشجانه . ابنته ثأرت منه لآل غندور . و إنه لثأر مجحف

وقف منه سليم العياش وقفة المغبون . فليس يقوى على ذبح ابنته ولم يدنسها هوى كفور ، ولا يستحل العفو عنها وقد مالت إلى عدوه وأباحته لكل لسان عضوض .

غير أن وهنه لم يطل . فاستعاد همته وجذب إليه ابنته من شعرها حتى أضحت عيناه فى عينيها ورشقها بقوله : يا قليلة الحياء ، كنت أحسبك تغارين على مقام أبيك فاذا بك تبيعيننى بما دون الهباءة ، بحب كذوب . ولو كنت تجهلين موقفى من آل غندور لعذرتك ، أما وأنت مطلعة على ما بينى و بينهم من مستعصى العداء فأى عقاب لا يجوز فيك وقد عرضتنى لنهش الأنياب الشامتة الرهاف ؟

فأغضت على ندم وقد شعرت بأنها خاطئة لا جناح على من يرجمها بحجر . وماتمالكت أن تعلن ندامتها بصوت يموج فيه الدمع : عفوك من طيشى . زلت بى القدم حيث لم تسعفنى القدرة على الثبات . زين لى بهاء غندور الدنيا رياحين فآمنت به وكفرت بك . هذا جهل منى جزاؤه الموت . فاستر بسماحك ذلى و إلا فهاك دمى. واقتلنى إن لم يتسع حلمك الندى لعقوقى الأثيم !.

فعاد إلى الجريض كأن فى حنجرته حسكة تؤلمه . أيعفو ؟ .

لم يكن من العفو بد وقد شعر سليم العياش بالرفق يرجح فيه على السخيمة . فهو يحب هذه الفتاة النبيلة فى أنوثتها ومواهتها . وصفح عن طيشها مع أن وجهه لم يبرح على اكمداد الخزية . قال مهدداً كأن خنجره بات لسانه : قبحك الله . ميعانك قتل فينا الأنفة . لاح لى فيك الطيش فنهيتك عن الجولان فى أزقة القرية مخافة سقوطك فى المهواة فما اهتديت بنصحى . أين لقيت بهاء غندور ونمت فيكما هذه المودة المنكودة ؟

فجمجمت من شفتين مطبقتين كأنهما تمانعان فى أداء الكلام: لقيته فى الغابة !

فتعاظمت حدته وهزها بشعرها هزة لوت عنقها وصرف بأسنانه وهو يقول مزبداً : فى الغابة ؟ . . . على خلوة ؟ . . . أجيبى يا ابنة السوء !

قالت : بل لقيته وأنا فى سرب من أترابى . وسقط منى ذات مرة منديلى فحمله إلى وخاطبنى بأدب جم معتذراً عن إزعاجى . وأضحى كلما لقينى حيّانى وابتسم لى . وأيقنت أن مخاطبته على حرام و بينك و بين آله نفار تليد فامتنعت من الجولان فى الغابة فأوفد إلى من يقول: الغابة مجالى الفسيح ، فلن تدوسها قدمه ما دمت

لن أرضى عن رؤيته فيها . وهذه الكياسة منه حببته إلى. فرسخ هواه فى نفسى دون أن أدرى . وتلاقينا على انفراد ، بلا موعد مضروب ، فباح لى بحبه وما استطعت إلا أن أصغى إليه وأبادله عاطفته . وما غاب عنى أنى مجرمة إزاءك مع استمساكى إزاءه بعفتى فطار عنى صفو عيشى وذهب السهوم بمرحى . ورغبت فى خلع هواه فأسقط فى يدى . فهو أقوى علىّ منى. أما وقد وضح لك الأمر وليس ترضيك هذه المودة فسوف ترانى من نواهيك على حفاظ . لا أعبث لك بمشيئة مهما قست ولا أستبيح نطاقاً تضر به فأصفح عن زلتى و بؤسى ؟

فكان صفحه عنها أن ضرب رأسها بالأرض على دفعتين وصاح مرعوباً : يا فاجرة ، كنت أؤثر ألا أسمع منك هذا الإيضاح الذبّاح . لست أعلم كيف عصتنى يدى فى القضاء عليك. إنك لطويلة العمر . بيد أنك لن تعيشى لسوى قهرى. إنى موقن بما سأعانى من غرورك . ولكن الموت لك بالمرصاد . فهو سيف مصلت فوق رأسك يهددك أبداً بخطف روحك فكونى على حذر . أبوك ليس ممن تداس فيهم الكرامات. التفاتة واحدة منك لا تحظى برضاى تدرجك فى أكفانك . عفوى لا يوهب لمخلوق مرتين !

ونهض والغضبة لا تبرح تنفث فى ضميره سمها، فقد أحس بأنه فى سماحه مغبون الصفقة . وأوشك أن يفتح باب الزريبة وأن ينسل منه . إلا أن فكرة وثبت إلى خاطره أهابت به إلى النكوص فعاد يقول : و بماذا خاطبك بهاء غندور ؟

فأجابت : هو يريد أن يعقد له على !

فخفف الجواب من غيظه وسخطه . فالمصاهرة بينه و بين آل غندور تقيم منه عديلا لهم يساويهم فى مجدهم . على أنه كفر حتى بالمساواة وهو يطمع فى الرجحان على السادة . وغمغمت شفتاه فيما انتشى بالبهجة قلبه : لن ينال المنكود منك قلامة . فلا ينشد المحال . إنى أمنعك حتى من النظر إليه . لن تبرحى المنزل و إلا إشتريت لنفسك الموت . فاحذرى أن تلعبى بدمك !

وفطن إلى خنجره المطروح فى الروث فتناوله وأدناه من نحر الفتاة وهو يقول هادراً : موتك لا يفرض على المشقة . ليس لى إلا أن أسقى هذه الشفرة من ماء قلبك . فاذا طاب لك أن ترويها فامضى فى شذوذك !

ومال على الباب يفتحه بخيلاء . بهاء غندور ، ابن أرفع بيت وأنبل أمرة فى بيت مرى ، يرجو مصاهرته . ولكن سليماً لن

يصاهر آل غندور . سيبدى لهؤلاء السادة أنه أكرم منهم عنصراً وأسمى طينة . فليتقلوا على نار . وراءه ما يرى أمام الباب وهو يفتحه . هذه امرأته مطروحة عند العتبة كشجرة أناختها الفأس . فاضطرب سليم العياش . ماذا أصاب امرأته ؟.. غير أن الحقيقة لم تلبث أن نضت بها بصيرته . خافت امرأته منه على ابنته فأقبلت تنقذها من انفجار نقمته . ولاح لها باب الزريبة مغلقاً فقطعت من الإنقاذ كل رجاء . والخشية من القضاء على نظيرة صرعت الأم فهوت أمام الباب بلا حراك . فأمسك بها سليم يناديها . فما أبدت نغشة وأقبلت ابنتها تهزها وتصيح : «أمى ، أمى ! . . » ففتحت عينيها . صوت ابنتها نفخ فيها الحياة .

و بسطت الأم ذراعيها على تلاشيها تطوق بهما ابنتها وهى تعلن متعثرة بدمعها : يا حبيبة أمك ، ألا تزالين فى الوجود ؟

وامتزج الدمع بالدمع ، ولانت الخشونة فى سليم العياش فما تماسك حيال المشهد الأسيان . وحبا إلى المنزل على تأثر وانحناء كيف خطر له أن يهدد ابنته بالخنجر وأن يهم بذبحها وفى هلاك ابنته هلاكه ؟ . . وأجابت كرامته الطعينة بما أزال من دهشته . ابنته كادت تهدم سمعته وقد قام بما عليه لدرء الخطر الفاضح .

وليس بالنادم على ما بدا منه وثمة ذود عن صيته .

ووثب إلى ساحة بيت مرى يعرض نفسه على أبناء القرية كأنه يقول فيهم : هلا أبصرتمونى؟ . . أين عيون الشماتة والغدر تلفوننى بها من رأسى حتى قدمى ؟

ابن غندور يلتمس أن يكون له صهراً وهو يمانع . واستقر فى دكان نادر الصراف يحشو غليونه و يجلس القرفصاء و يسند ظهره إلى الباب . وضحك ضحكة الظافر . وكل من مرّ به لمس فيه الهمة والإشراق . فنفض عنه ذله واستأسد وأضحى يرد النظرة الساخرة بنظرتين منتفختين وتعجب منه حتى نادر الصراف صديقه . فما هذا الانقلاب فيه بين صباح ومساء ؟ . . قال نادر : إيه يا أبا سعيد ، أراك تبدلت فهل وقعت فى النبأ على فرية ؟

وكان هو يرقب من يحكه لينفجر . فصاح بصوت طنّان : نظيرة أرفع من أن تتسفل إلى المخازى يا نادر . فما تعودت أن تغوص فى الأوحال . كل شماتة بنا حمق وسفال . وكل ظنة إثمٌ ومين . ولسوف ترى !

وتخاذل أبناء القرية عن استطلاعه التبديل فى أساريره ووقفته . كان جبينه لاصقاً بالأرض فإذا به يشكُّ فى السماء .

فما هذا التيه بعد ذاك الانكسار؟ . . وتساءلوا فيما بينهم عن السر وهم على قلق وكمدة . فما راقهم أن يرفع سليم العياش رأسه بعد انحناء .

وفى الليلة نفسها ، أرسلت نظيرة تدعو بهاء غندور إلى حديقة الكوخ . وكان بينهما ما كان !

٤

القلوب الهائمة عمياء . تتكلم فيها العاطفة ويخرس الهدى . وقد تهوى بحامليها المتعبين بها عن مكانتهم وتلقمهم الإسفاف ، ويرضى حاملوها ولا يتهيبون الزلق غير مؤمنين بالانحدار .

ولم يكن بهاء خادع القولة فى دعوى الهوى . فأحب نظيرة العياش حباً صحيح النبضة ، صادق اللهبة ، أضحى به على حنين شاغل يتواثب فيه أبداً جواه العصى . فالفتاة باتت مستدار تفكيره ، يستيقظ منها على ذكريات بليلة ، و يغفو على حلم رفيق . وأحياناً لا يغفو وهو من شغفه بفاتنته فى سهو وذهول .

وتناسى موقف أبيها من آل غندور ، بل تناسى جاهه وقدره حيال ضعتها وهونها . فتراءت له مقدودة وأياه من أديم واحد .

لا ترجح كفة على كفة . فلن يلتوى بهاء عن مكانته فى ازدواجه بمن نشأ أبوها فلاحاً فى دنيا آل غندور .

واعتزم مخاطبة أبيها فيها . سيقترن بها و يقيمها سيدة قصره وملكة نهيته . ولم يأنف من السير إلى أبيها فى كوخه يعانى صلفه ولؤمه . فالتضحية فى الحب مقدورة ، وليشمخ سليم العياش بأنفه ما شاء ، فلكل امرىء فى زمنه فترة من نشوة يتوهم بها أنه يقبض من السؤدد على الناصية . وسليم العياش وقد بسم له فى ابنته الدهر لا بأس عليه إذا انتشى واستطال .

ولكن قد يمانع سليم فى هذا الحب والرجل غريب الطباع . فتسوقه النشوة على جماح ويأبى على ابنته الطفرة إلى مرتقى النسور . غير أن بهاء ابتسم ابتسامة الزهو والممانعة تعرض له . فما ألقى إليها بالا . أيتفق لنظيرة أن تعلو إلى مدرج النبل والثروة ويحطم أبوها منها الجناح ؟

ولم ينم الفتى ليلته . فالليل ودع فى عينيه الصباح . فأقام بجانب سريره على قلق . إلا أن عزمه على الاقتران بنظيرة لم يهن فيه . فالعهد مفروض فيه الوفاء .

وتنفس بهاء ملياً والصبح يكشف عن باحته الندية . ونفذ

النور من الكوى الساهرة أبداً كأنها بليت على متناهى الأمد بعصى الهيام . ونهض الفتى إلى الماء يبل به جبينه . ووقف على شرفة من شرفات قصره الزاهى تبدو له منها بيت مرى المجللة باخضرار الصنوبر واغبرار الزيتون ، دمية لعوباً خضلة المبسم . غير أن بهاء لم يكترث للمباهج المشرقة مثله لكوخ شبه حقير ، يكاد يغيب فى مشارف السفح بين أنصاب التوت والدوالى المتعرشة ، الحابكة بأغصانها وأوراقها السطوح الخضر .

هذا مثوى نظيرة العياش . فشخص إليه بصر الفتى كأنه لديه بيت مرى بأجمعها . فما لفتته إليها القمم المبرقعة بانفاس الصباح ، المتصاعدة عن يمينه فى جوّ مصمخ بالطيب كأنها درجات الفلك ، ولا استهواه البحر الساجى المنشور على مرأى منه كالصفحة العذراء البريئة من خدشة . فلقد وثبت عيناه عفواً إلى مدرج فؤاده ؟ ومهد أمله . بعد هنيهات قلائل سينحدر من مغناه المنيف إلى الكوخ الزرى ، إلا أنه كوخ نبتت فيه زهرة حسن غضير ، كوردة فى أملودها المكسو بالشوك . وفى سبيل هذه الزهرة ضحّى بهاء غندور بجلالته ، واعتزم مخاطبة صعلوك من صعاليك القرية مخاطبة العديل للعديل ، بل مخاطبة الثرى الجاه

والمال المسترحم رفد الممسك من الثروة والعزة على خيط نسيل .

ولم يقو على رد ذكريات سمان فجأت خاطره . كلمة واحدة من هذه الشرفة المستوى عليها كانت تجر بالأمس بيت مرى جميعها وسليماً العياش فى الطليعة . أما اليوم فإن حفيد أولئك الميامين باضطرار إلى براح القصر ، المتوسد عظاماته الحوالى ، للمثول أمام أحد خدم القصر المنبوذين ، كالمستجدى الهزيل . ومن هو سليم العياش ؟ . . كان فلاحاً فى مزرعة ولا يبرح فلاحاً فى مزرعة . وجلّ ما بدر منه أنه تجرأ على رفع الرأس وخلع النير . حبة ناشزة تحررت من سمط العبيد !

وسع كل ما انتاب بهاء من خجل وهو يوطن النفس على الانحدار إلى كوخ سليم العياش لم يستطع إلا الانحدار إلى الكوخ . فإنه ليتسشفع فى قلبه . والمنكوب بقلبه عليلٌ مظلوم !

ومن عادة سليم العياش أن يبكر فى النهوض . فيستقبل بغليونه المائع الفجر الأملى . وغليون سليم من صنع يده ، اعتمد فيه ساق شجرة من الآس ظل يجلوها ويحتال عليها فى ثقبها حتى انتظمت فى شبه عصا . ولكنها عصا تشتعل فى فم سليم العياش ، كأنه لم يبلغ بها عهد الفطام . وهى إن لم تغرز فى شفتيه تجود

بأنفاسها غرزت فى وسطه ، أو نامت تحت وسادته ، فى فراشه ، تنعم بدفئه ، وترتع منه فى الحرز الحريز.

ولا غنية فى الصيف لسليم العياش عن المصطبة يقرُّ عليها منهاج يومه ، وفى هذا النهار قابلته المصطبة باحتفاء حفى ، بل خيل إليه أنها تبالغ فى الترحيب به وانتصاره على آل غندور أفعم نفسه بدفقة من الغبطة نفت ببلسمها العذب شجونه ، وزادت فى مضاء شممه بعدما كاديبلى فى أحدوثته بالفلول .

ودعا بمسند يتوسده ، و ببلاس يتمدد عليه . وأطلق مجة عامرة من غليونه المشتعل الهامة ، فغام عليه دخان قاتم الزرقة عقد حول رأسه حجاباً من ضباب تتصاعد خيوطه ولا تتماسك . فتهى وتضمحل . بيد أن الحجاب كان يتلو الحجاب ، فلا يفنى حتى يبعث ، وسليم يقضى هنيهات من البهجة الصامتة طغت فيها على ضميره المؤنسات الغيد .

وتناسى بقرتيه الصبحاوين ، ومحراثه ، وحماره القبرسىّ سيد حمير القرية بلطافة شكله واعتزازه ، وحقلة التوت ، وكرم الزيتون ، والتين المسطوح على البيدر عرضة لنهش الكلاب ، وطمع الثعالب ، وأمانة الناطور ، بل هو تناسى خابية العرق

الحديثة الجمام ، سميرته في ليالى الترفيه ، وانصرف إلى التلذذ بجاهه النامي ، والاعتداد بمنزلته الصاعدة . بين إطباقة عين وفتحتها سوف تراه بيت مرى في مرتبة سادتها آل غندور .

وابتسم سليم العياش ابتسامة الحالمين بالهناءة . ونقدت الدجاجات رجليه الحافيتين ، وصاح في أذنه ديكه الأزهر ، ولم يشعر بالنقدة ولا بالصيحة وقد غرق فى حلمه الوسيم . بلى ، كانت تنتفض فى المرة بعد المرة بالغلميون يده ، كالآلة المتحركة بلا حس. فيملأ خياشيمه بالدخان ثم يمجه على مهل ، دفعة تلو دفعة ، كالحريص على ماله فى مجال الإنفاق ، يؤديه أقساطاً ، بإمساك وشح .

وغزت الشمس القمم ، واستطالت على السفوح والأودية ، وسليم ينعم بضجعته وقد نسى فى حلاوتها نفسه . وتعجبت امرأته من غفلته فدنت منه تقول : ما بالك غيرت العادة يا أبا سعيد ؟.. ما رأيتك كاليوم تتهاون فى الغدوة . نكاد نكون فى منتصف النهار وأنت متلبد فى ضجعتك . أما لذعتك الشمس وحبالها تتدلى إليك مع العناقيد ؟

وفوق المصطبة تمتد دالية كالخيمة ، تضحك فيها عناقيد زنوج

تستهوى النهيم . فتمرغ سليم العياش فى زغبر البلاس ، وأجاب بصوت طرىّ : صدقت ، يجب أن أنهض !

واستعان بالله ووقف يصلح من هندامه . فشدّ زناره على زمّة سرواله الأسود ، وانتعل حذاءه المثقل بغلاظ المسامير ، ومشى إلى إبريق الماء يغسل وجهه ، ونادى ابنته يقول : أسرعى بالمنشفة يا نظيرة !

فهو سيد المنزل المطلق وعلى امرأته وابنته أن تتوفرا على خدمته بطاعة تنبو عن التردد والحجاج ، وحملت إليه نظيرة المنشفة ، غير أنها ما أوشكت أن تدنو بها منه حتى أصيبت بجمود أضحت به لا تقوى على الخطوة . سُمّر بصرها فى سواد مقبل ، وبغتتها لعثمة تشفعها رجفة . فصاح بها أبوها : هلا أسرعت ؟ . دهتك العلة !

فلا يزال ناقماً عليها وقد عرضته لمسوخ الأقاويل . وإذا صوتٌ يرتفع عن جانب كريم الغنة يقول : رويدك يا أبا سعيد !

فالتفت ولقى ماالقيت ابنته من مباغتة . وما كاد يصدق عينيه . ببابه بهاء غندور . وأحس على كره منه بخنوع العبيد تجاه السادة . فالرق فى الدم . وباحت شفتاه بصادق حسه : مرحباً بمولانا !

ووثب إلى ابنته يتناول منها المنشفة و يمسح وجهه و يديه .
وزحف عجلان إلى بهاء غندور ينحنى أمامه ، و يحاذر أن يمد له يده مصافحاً ، كأنه يخشى أن يمنع عنه بهاء يده . قال والمسرة تلفه بأقمطتها : ما هذه النعمة يغمرنا بها سيدى ، فيرضى بأن يدوس عتبة هذا الكوخ ؟

فماع عفواً . لا يزال موقناً أن آل غندور سادته ، وأنه إزاءهم من الخدم . فقد استفاق فيه ، وهو منهم وجهاً لوجه ، الطبع الموؤود . على أن بهاء أحيا فيه الجرأة المحتضرة بأن وهب له يده يشدها ، قال ابن غندور وعينه فى نظيرة المجاهدة فى استعادة سكينتها ، و يده فى يد أبيها : منذ عهد بعيد وأنا أرقب السانحة لتحيتك فى منزلك يا أبا سعيد . وما خفى على أن فى الإقدام مفاجأة . وأرجو أن تكون مفاجأة سارة بعد تلك القطيعة . كيف أنت أيتها الآنسة نظيرة ؟ .

ونظيرة بيت القصيد . وهى حقيقة أدركها سليم العياش وآمن بها . ولم تملك الفتاة المقدرة على الكلام . فانتقع لونها وارتجفت ركبتاها مع كل محاولة منها فى إبداء الصلابة . ودنت من بهاء تتصنع السكينة . ومدت له يداً باردة كحجارة الارماس . و نظرت

إليه بعينين خطف الذهول بريقهما وهى تنحنى أمامه شأن أبيها دون أن تسعفها شفتاها بنأمة . فلم تكن على اعتقاد راسخ بتضحية ابن غندور فى سبيلها ، فيكفر لأجلها برفيع منزلته و يبدو فى كوخ سليم العياش الوضيع .

وأكبرت فيه الصدق والوفاء . وجاءت أمها ترحب بالسيد . قالت وهى تكاد تلتصق بالأرض بين يديه خشوعاً : أوليتنا شرفاً لسنا به حقيقين ياسيدى . هذا منك سماح ونبل ! .

فراقه المديح وزاد فى اطمئنانه . وفتحت له حجرة على بسطة من الإتقان فى زينتها ورسومها . هذه قاعة الكوخ ، وإنها من الكوخ لأشبه بالحرم . فلا يدخلها سوى كبار الضيوف . ومن النادر أن يأوى أرباب المنزل إليها . فالباب مقفل ، لا يدور على مصراعيه لسوى الترحيب بنزيل كريم أقبل أو سيد رفيع أطل .

وتولت نظيرة بنفسها أمر الحجرة المزركشة تشرف على إعدادها . فطرزت لها الوسائد ، وزانت الجدران بالرسوم . وفى كل صباح تجمع طاقات الرياحين لترصيع صدر القاعة بالريان الضحوك . وسخا سليم العياش على قاعة كوخه ببساط دقيق الصنع حاكته أيدى الناسجين فى معارض تبريز ، و بمرايا بين

مستطيلة ومستديرة اقتعدت أكباد الجدران كالفراشات فى أطباق الزهر . وعكفت نظيرة على وشى رسوم من الطيور والضوارى فى ستائر من المخمل مسدولة على نوافذ ثلاث ، فجادت على الكوخ بمسحة من نعمة وخلعت عليه فضلة من أناقة . وفى صدر هذه الحجرة المزركشة ، الثائرة بوسامتها على دمامة الكوخ استقر بهاء غندور . وجلس سليم العياش بعيداً عنه تقديراً للمكانة وإمعاناً فى التكريم .

وجاورت الأم والابنة الباب تناهياً فى اين الجانب ، وإقراراً بسيادة رب المنزل . وألقى بهاء نظرة على الرسوم المالئة الجدران . ووقفت باصرتاه عند رسم وضاء فجاد عليه بالبسمة وقال يشير إليه : هذا رسم العزيز سعيد . انى لأعرف سعيداً معرفة محكمة . كنا فى عهد الصبا صديقين . ويوم رحل إلى أميركا لم يشأ أن يبخل على بتحية الوداع . جاء إلى يقول : « أنا فى رحلة طويلة لست أعلم أأعود منها أم لا أعود . ولقد رأيت قبل ركوبها أن أهز يدك . فما أنسى أنك كنت رفيقى فى الصغر . وإنى لمتق الواقعة بينكم وبين أبى مادمت لا أصطلى بنارها . الوداع ! » . ورام مصافحتى فأبيت إلا أن نتعانق وأنا أقول : « إلى اللقاء ! »

حدثونى عن سعيد . أيكون على توفيق ؟ .

فرشحت أعين الأم والابنة بنضيض الدمع . و بلع سليم العياش ريقه حرقة على هجرة معقد أمله . وساد الصمت الحزين جو الغرفة الندى بذكريات حلوة مرة . فلقد أجاد بهاء حبك المقدمة بطلاقة خالية من التكلف البليد . فكأن سليماً من أهله وأنسبائه ، أو صديق آل غندور الحميم . وهذا الازدلاف خلع على المجلس روح التصافى . فشعر الجميع بأنهم فى حلقة من المودة والأنس لا تكدرها نفثة من ضغينة . وشقّ سليم العياش الغشاوة المضروبة على الأفواه فقال مجاملاً : نحن نأكل من خيركم وخيره ياسيدى ! .

فابتسم بهاء بسمة نافية يستدرك بها الإفراط فى المسايرة وقال: العفو يا أبا سعيد . الخير خيركم . أى فضل لنا فى نجاحكم وقد حالت الأيام دون استمرار الإلفة . أيوافيك سعيد بالمال الكافى ؟

— فى مطلع كل صيف لنا منه دفعة . ولقد أنفقنا الدفعة الأولى على نظيرة كى ترسخ فى العلم . هذه رغبة سعيد . فقد أصر شقيق الفتاة على تعليمها كأنه يجهزها لغد ربيح . مع أن ليس لمن كان مثلنا أن يستبحر فى المعرفة ولن نعدو فى دنيانا الحقل والمحراث!

فخانت من بهاء لفتة باسمة إلى ابنة سليم العياش وقال مباسطاً: ونظيرة يرقبها غد ربيح يا أبا سعيد !

فهز سليم العياش برأسه كافراً بما يسمع وقال بسخرية مرة: وأى غد تليق به؟ . . ولدت مثلنا للشقاء وستفنى مثلنا أيامها فى شقاء. فليس يرقبها ملك ولا أمير . شاء أخوها أن تملك نزراً من عرفان فلم نخرج على مشيئة أخيها . وهذه النتافة من الاطلاع لم تزد فى قدرها ولم ترفع من مكانة أهلها . نشأت فى بيئة فلاحين . فالمال المنثور فى تعليمها وقع على صخرة . فلا نفع لنا منه !

فأطرقت نظيرة على خشية وهى تسمع أباها فى مقاله النابىء الخادش . ولملمت الأم نفسها كمن يحذر انقضاض الرزيئة . وأدرك سليم أنهما فطنتا إلى مراده فمال إلى إقصائهما عنه مخافة أن يدحض موقفهما منطقه . قال منددا : أين أنتما عما يجب لسيدنا ومولانا ؟

فنهضتا معاً كأنهما تملكان عصباً واحداً . فاعترض بهاء . دعنا من الواجب يا أبا سعيد . أنا منكم وفيكم . لماذا الإزعاج ؟

فحامت بسمة صفراء على أسارير سليم العياش المتقلصة بحقد وقال برغبة فى الإيلام : ليس لأمثالنا الفلاحين أن يجالسوا

السادة . فلئن أوليتنا هذا الشرف الضخم بالجلوس بيننا فلن يحملنا الدلال على نسيان طينتنا . نحن خدمكم وعبيدكم . إن وداعتك لا تمحو ضعتنا !

فصاح بهاء وقد رضت ضلوعه اللهجة المنضنضة لؤماً : أبا سعيد لقد أسرفت !

فما تبدل موقفه . قال : نحن جماعة الفلاحين لا نجهل مستوانا . فما تدفعنا خسة أحسابنا إلى الطمع فى سلوك طريق تتعب فيه أقدامنا . فمن تعوّد الظلام يعمش فى النور . ومهما نبلغ من الرقى فالعبودية تلفنا أبداً بأطمارها . فإننا لعلى الأبد منكم ذلك الشعب الزرىّ !

فأحسها بهاء عضات تغرز فى كبده وتنهش صدره . وما تمالك أن صاح بغيظ فائر : أتتنقصنى يا أبا سعيد ؟

فانحنى أبو سعيد حتى كاد جبينه يلتصق بالأرض . فهو يجيد تمثيل كيده . قال ببراءة الذئب المتبطن جلد الحمل : أأجرؤ على السبة وأتنقص سيدى وابن سيدى ؟ . . انها لقحة أصون عرضى من نخشها . من أنا كى أقدم على الغمز من جلالكم ولحم أكتافنا من خيركم ؟ . . . وماذا كنا لولا كم ؟ . . . هباءة

فى صحراء . لا تخدعكم فينا إيماضة من عصيان ، بل نشوة من دالة . نحن إذا مشينا العمر على رؤوسنا فى خدمتكم فإننا لنقف بعيدين عن وفاء الحثالة من دفقات أفضالكم علينا !

فتواثب دم بهاء فى شرايينه حانقاً برماً . ما هذه المعاندة العاتية ؟ . قال الفتى وهو يغص بكلماته : أراك لا تبرح على نفرتك منا يا أبا سعيد . ألا رفقاً بحشاشتك . أنا ما جئت إليك لنبش الماضى الدفين . تلك الصلات المبتورة أقبلت أربطها وأحكمها . بهاء غندور يريد أن يقيم منكم قرابة . أيرفض سليم العياش قرابة آل غندور ؟

فكاد ذلك الفلاح الطموح الوقاد العزيمة، يطير لفرط بهجته . وقع على ما يتمنى . إلا أن شهوة الانتقام المتغلغلة فى أعماقه أخفت فيه كل مسرة . قال وفى مطاوى صوته سخر المرتاب : وهل من قرابة تربط العبد بالسيد ؟ . . . أين بنو العياش من آل غندور كى نحلم بهذه الطفرة الوعرة المرتقى ؟ . . . رأفة بحقارة الرخو الجناح يا سيدى !

— الوعر يجد من يذلل وعورته يا أبا سعيد !

— لست أفهم أيها السيد !

— ما قولك إذا طلب منك بهاء غندور أن تعقد له على ابنتك نظيرة ؟

فتصنع سليم العياش الاضطراب وصاح : أيها السيد !

وانقلبت ملامحه كأنه يرتعد فى عته . وحسبه بهاء صادق التأثر وفى بليغ البشرى ما يضعضع أحياناً ذوى النهى . وخشى الفتى أن يكون صدم والد نظيرة فى مكمن إدراكه فنهض إليه يمسك منه بكتفيه ويهزه بشدة قائلا : أبا سعيد ، ما أنا بالمازح ولا الأمر بالبعيد التحقيق . أريد ابنتك زوجاً لى، أفهمت الآن ؟

فتظاهر سليم العياش ببذل المجهود فى استعادة الصواب وقال مستوضحاً بارتباك : أتريد نظيرة للزواج ؟

هذا جل ما أطمع فيه يا أبا سعيد

فبدا من رب الكوخ أن يتنفس مرتاحاً وقال : هذه نعمة السماء تحل علينا . ما حسبتنى أحيا إلى زمن يعطف فيه سادتى على خمولى وينهضون بى إلى موئل النباهة ، فيورق عودى وتسمو عشيرتى ولكن حظى ، لعن الله حظى يا سيدى ، غير مسعفى . جئت بعد الأوان !

فصاح بهاء : بعد الأوان ؟

— لا سبيل إلى محو المكتوب أيها السيد . مصير نظيرة بات مقدوراً عليها !

فأُرتج على بهاء وتولاه الشَدَه . ماذا يسمع ؟ . . . من سبقه إلى نظيرة ؟ . . . لم تطلعه الفتاة على النبأ الصافع . أيهذى أبوها ؟ . . . وغالب الفتى نفسه على النطق . فالموقف لا يجيز السكوت إقراراً بالهزيمة . قال بصوت يكسفه ذلّ الخيبة : ومتى أبرمت مصير نظيرة يا أبا سعيد ؟ . . . أجادّ أنت فى ما تعلن ؟

فأجاب أبو سعيد. وعدت بنظيرة ابن عمتها وهو يركب البحر إلى المكسيك . وابن عمتها فتى همام كميل ، ولكن أين شأوه من خطر بهاءّ غندور ؟ . . . لو كنت أعلم أن غدها سيرفعها إلى درجة النجوم لأمسكت عن وعدى ريثما يطل فتاها . غير أن يقينى بأن العبدة للعبد أهاب بى إلى وقفها على ابن عمتها . وأنى لمثلى أن يرجم بالغيب كى يعلم أن البومة قد يكتب لها الثواء فى حلقة الشواهين ؟

وشدّ الفوز بأبى سعيد صُعُداً حتى كاد يجاوز مسبح الغمائم . والتهب جبين بهاء غندور وذابت فى الفتى بقية من شموخ . ولو أوتى سليم العياش السمع الحاد لوقعت فى أذنيه قضقضة

حنجرة ابن السادة . وتكلم قلب بهاء الخشيان النائح على شفتيه فقال : أبا سعيد ، على رسلك . لا تجازف بمستقبل ابنتك . أنا أحب نظيرة وأراها جديرة بحبي ، فلا تمنعها عني لتثأر لنفسك منا . ما جئت إليك بثروتي ولا بجاهي ، بل بقلبي . من يخاطبك ليس ابن غندور . ابن أعدائك ومضطهديك ، بل من عظمت لديه ابنتك فأقبل ينزلها منزلتها . وقعت من نفسي موقعاً أثيراً فلا تفجع نفسي بها !

ونطق فيه هواه يستغيث. ولكن ظلامة الحب لم تجد منفذاً إلى الرفق في القلب المغلّف بأحقاده . فالناقم على السادة ظل موغلاً في نقمته . قال متمادياً في التهشيم : سيدي ، لا تحاول إقناعي بأن المطية تصلح لامتلاك الأعنة . فالمحكوم عليه بالعبودية لا يملك القدرة على رفع الرأس والنير في رقبته والسوط في قفاه . نظيرة ليست جديرة بك . هل رأيت الأرمد العين يجرؤ على اقتحام وجه الشمس ؟ . . . أي أضحوكة يشوقك أن تثير في القرية ؟ . . . دعنا في انحطاطنا واحرص على رفعتك يا سيدي . لسنا نريد أن تصاب لأجلنا بالشين ، فيتقول عليك من لا يليق بأن يكون موطئاً لنعليك !

ولـكن بهاء لم يتراجع . قال : لا قدر عندى لأقاويل الناس يا أبا سعيد . فلست أرانى أهون فى اقترانى بمن حبست عليها جنانى . مالى ولمن ندعوهم بشراً . هؤلاء قوم تطربهم المناعى وتبهجهم الرزايا . يشوقهم أن يبصروك أبداً فى مأتم ، تقضى أيامك فى نهلة البؤس وكسوة الحداد . أبا سعيد، ما جرنى إليك سوى حبى لابنتك ، فلا تكابر ولا تنتقم . لن أنخر على مسمعك بكريم محتدى ولا ثرى مالى ، بل ألقى بين يديك نفسى عاطلاً من كل وفر وجاه . أتجدنى حقيقاً بمصاهرتك وتعقد لى على ابنتك نظيرة ؟

فطفح صدر سليم العياش بأوتاره . هذا أوان الانتقام . فالضحية كشفت له عن مقتلها ولم يبق عليه إلا أن ينحر ويتمتع برؤيتها ترقص فى دمها وتجود بروحها . قال ينفث اؤمه : أيقنت أنك شديد الإخلاص لابنتى أيها السيد بهاء . ونظيرة ريحانة ندية ، عطرة الفوح ، غير أنى وعدت بها ابن عمتها نصيراً ، ولست بمن يعد ويحجم عن الإنجاز . أنت حقيق بأكمل فتاة . ثم إن بيتاً تصاهره ترفعه إلى الجنة . ولـكن جئت بعد الأوان . لن أنقض ما أبرمت . مطلبك منى محال !

وأعلنها كلمات هادئة إلا أنها هادمة . فارتعد لها بهاء غندور ولم يدر كيف يتماسك . أيطلب ابنة سليم العياش للزواج ويخيب ؟ . . . إنها لفضيحة ! . . . وعاند في الانهزام . فغالب نفسه على القول وشفتاه تلحدان ابتسامة مائتة : سليم ، بالغت في الانتقام . كفى . جاوزت في كيدك شفاء الحزازة . حسب ابن غندور أن يكون سعى إليك طالباً ابنتك للزواج . ففي هذا الإقدام تضحية وافية. أيروقك أن تستشير ابنتك في مصيرها ؟.. ابنتك مالكة رشدها ، فلا تعجز عن اختيار من تؤثر لغدها !

فهال سليما هذا السماح . أيبيح لابنته اصطفاء رفيق حياتها ، ومتى كانت الفتاة تنتخب أثيرها ؟ . . . وزأر سليم العياش وهو يلهث : ابنتي عبدتي أيها السيد . وكلمتي فيها كلمتها ، ولا محيد . ما ضم منزلي ولن يضم من يعاندني في رأيي . نظيرة ليست لك ولن تكون . من المحال أن أزفها إلى عدوي وابن عدوي . أنتم لستم منا ، وأعناقنا تتعب في التفاتنا إليكم . يؤسفني أن أردك خائباً ، إلا أن الموقف يفرض الصراحة . لا تطمح في ما تطحن أضراس سواك . نظيرة لابن عمتها نصير الهاني !

وتفجرت حفائظ سليم العياش وتكشفت نواجذه . وود بهاء

الاعتكاف على معالجة العلة حتى الشفاء فمانعت نخوته . فلملم البقية الباقية من أنفته المهشمة وانصرف وهو يقول بوقار الحليم : عفواً عن إزعاجى إياكم فيما حسبته على متناول يدى . أرجو لنظيرة الرفاء والهناء !

ولم يلتفت إلى سليم العياش . وما رقب أن تعود إليه نظيرة بالقهوة . فالصدمة ألهبت أعصابه فانتصب مكرهاً على قدميه شاخصاً إلى الباب يروم الفرار . وأنف أن يمد يداً لسليم بمصافحة فالسيد عاد فارتدى بزة السيد . وما سليم العياش غير عبد نكد.

ومشى بهاء فى الأرض بأشر وجبروت كأن الإهانة لم تنزل به إلا أن هذه الخيلاء لم تهد من حيل والد نظيرة . فرافق سليم تيه الفتى بعين يضحك فيها الخبث المنصور . فالثعلب قهر الأسد . وصبر بهاء على الإخفاق وهو يبرح الكوخ . ولكن الصبر وهى والفتى يجتاز أزقة القرية . فخيل إليه أن بيت مرى على إطلاقها تنظر إليه بإعراض وتسد أنفها عنه. ما دعاه إلى هذا السَّفال؟.. نسر يهوى من وكره إلى مرحاض الخنفساء والخنفساء تركله ، كأنها على نتنها وانحطاطها أرفع قدراً من سيد الجو الأثيل !

وأسرع بهاء فى الاحتجاب عن كل عين ناقماً على قلبه .

لقد أهلكه قلبه . ونضح جسده بعرق الخيبة البارد كأنه مشرف على منيته . وكاد بصره يتيه عن طريقه . وفى قصره المشمخر انزوى بأسفافه كناسك زاهد فى الدنيا . وألقى رأسه بين يديه واستسلم إلى آلامه . فهو غريق الخزية . أيشمخ عليه خدمه حتى فى سعيه لرفعهم إليه ؟

واعتزم هجر بيت مرى . سينأى عنها إلى حيث ينسى . ولكن هل ينسى والإخفاق زاده شغفاً بنظيرة العياش ؟ . . . لا ، إنه لعاجز حتى عن التناسى. واختلج فى حيرته . لا يستطيع أن ينسى ولا أن يتناسى . إذن يجب أن تكون له نظيرة . وستكون له على كره من أبيها . فما سليم العياش غير حشرة تسحقها دعسة . وحشرة من هذا الطراز ليست عقبة دون العزم الصدوق !

٥

بيت مرى على كفران بما تسمع . فإن هذه الرواية الطالع بها عليها سليم العياش لاتلقى فيها مسكة من إيمان . أيريد بهاء غندور نظيرة للزواج ويخذله أبوها ؟ . . . إنه لطيش وحمق ، بل هو

فى الجنون لخولة . فأى أبله هو سليم إن يكن رفض حقاً زفاف ابنته إلى سيد بيت مرى وأغنى غنى فيها ؟

وأبت القرية التصديق . بهاء غندور مع هيامه بالفتاة لن يهون و يطلب أن يعقد له على نظيرة . فالقشاعم لا تنحط إلى درك الهررة . ولكن القرية أبصرت صباح أمس بهاء غندور يؤم منزل سليم العياش ، والقرية كلها عيون ، وهى واقفة بأجمعها على ما بين بهاء ونظيرة من مودة ، وعلى ما يبطن سليم من كره لآل غندور . فقد يكون بهاء طلب ، وسليم مانع . هذا تشفياً وانتقاماً ، وذاك إجابة لنداء قلب مستهام .

على أن التردد فى التصديق لم يقف ببيت مرى عن لوك الإشاعة . إنه لفظٌّ غبيّ سليم العياش ان يكن نبذ ابن السادة الميامين . وعقدت القرية مجالسها تتجاذب الحكاية ، فتصدقها ثم تنكرها ، والشطر الأوفر مال إلى الإنكار . ولكن سليماً لم يتعوَّد الاختلاق ، ولا يرضيه أن يجازف بابنته فى مضطَّرب الألسنة . فلو لم تكن الرواية صادقة لتحامى إعلانها .

واتقد الفضول فى الخواطر ، وهام الجميع بالاستطلاع ، فمالوا على خدم القصر يمطرونهم الأسئلة . أصحيح ؟ . . .

طلب وخاب ؟ . . . إن سليماً لمعتوه . أتهبط عليه النعمة ولا يحلها منه فى العنق ؟ . . . جنى على ابنته ، لا أقيلت له عثرة !

والناس يديرون ألسنتهم على لولب و يتجهون بها فى مهب الريح ، فهم أبداً بجانب من يخاطبون . واطمأن الخدم إلى ما يلقى فى مسامعهم من امتداح رب القصر فجادوا ببنات الصدور . فالسيد بهاء محتجب منذ يومين فى حجرته ، لا يأنس بطعام ولا شراب . أما الإشاعة الهاذرة فنفضوا أكتافهم وشفاههم منها ولم تنبض آذانهم بالنبأ المعتلّ الإيمان .

واحتجاب بهاء فى قصره ، وانقطاعه عن مأكله ، شفعا فى رواية سليم العيّاش ، فهى تموج على صواب . و إلا فلماذا يعتصم بهاء غندور فى حجرته على كمدة لا يتقى الجوع ولا يتفادى الوحشة ؟

وتعاظم اللغط ، ونال منه بهاء الشماتة والمذمة ، وانتهت القوارص إلى الفتى تستبيح نطاق عزلته فأمعنت فى إيلامه . لقد درت القرية ، سليم العياش يتباهى بفوزه فى الأزقة والدكاكين .

وسليم وقف فى حانوت صديقه نادر الصّراف كعمود الإعلان

فى الساحات العامة . ولقد كان عموداً ناطقاً كالمذياع الجهير لا حاجة به إلى إتعاب العيون فى نشر آياته . قال : عيرتمونى حبه لابنتى وسخرتم بى ، وهو يحب ابنتى، وهفا إلىّ يطلبها منى ، فماذا لقى ؟ . . . هل علمتم ما لقى ؟ . . . كان نصيبه منى الصدّ والقطيعة . فمنعت عنه نظيرة بخشونة وصرفته بامتهان زرىّ !

وتنقص سليم العيّاش السادة . هؤلاء قوم تنبذهم فى معتقده المروءة وقد لجوا فى الغواية ، واحتشدت القرية حوله تصغى إليه فى شتائمه . والقرية تجمعها قرعة طبل ونفخة مزمار ، بل هى تلتقى على ضحكة وصيحة . وساءل القوم بعضهم بعضاً : ما بال سليم يمخرق ويعربد ، هل جُنّ ؟

فوافتهم الأيام بما يجلو الشك الحائم ، سليم العياش سليم النهية . فالحق ما يقول . وخلع قلب بهاء أن يفضحه فى فلاحيه وخدمه من كان من فلاحيه وخدمه . فضاقت به بيت مرى وتراكمت فى عينيه ظلاماً ، ومال إلى الهجرة يصون بها وجهه . ورحل عن القرية إلى مزرعة له فى البقاع فتصدّر ذلك البساط المبرقش ، الممتد على رحابة كأنه يفتح أبداً ذراعيه للنزيل على مداها . ويمعن المحراث فى خدش صفحته الملساء ، ويشق جبينه بالغضون

العراض ، فيحيا بخدوشه و ينتعش بغضونه ، و يأ كل الحبة فيردها عشراً . يا للمديون المغالى فى الوفاء !

ولكبار الموسرين فى لبنـان فسحات فى هاتيك السهول الخصاب ، الهانئـة بالاستقرار فى ذلك المسيل العريض كأنه رحمة الله . وحفّت جنباته جبال ضخام ، تكاد تحكّ بشوامخها الرهيبة الجلال عين السماء . جبل الشيخ من ناحية ، وصنين والباروك من ناحية ، كالحرس الأمين تبادر السهل بالتحية ، وتردّ عنه العوادى الصلاب .

وآل غندور يملكون فى البقاع مزرعة سمحة المجاني ، مؤنسة الرحاب . شيدوا فيها داراً شرقية اللون ، بأعمدة وقباب وسطوح وأحواض . وسطعت الأناقة فى المغنى الرخىّ فبدا كالبسمة فى اليوم الجهم . وفى هذه الدار يقضون شطراً من فصل الربيع ومطلع فصل الصيف ريثما ينتهى الحصاد وتصفّى الغلال . و بهاء فزع إلى داره المنتحية فى البقاع جانب العزلة للخلاص من استكلاب الأنياب ، إلا أنه إذا نجا بأذنيه من المطاعن فما نجا بقلبه من علة الهوى . فالحب وقد أدمته الصدمة هاج واحتدم .

ووطن بهاء النفس على الكفاح ، فلن ينام على الجرح المديد

النعرة . سيعود إلى ابنة سليم العياش ويحدثها عن جواه طالباً إليها الرفق بابّه . فإذا أبت اختطفها وهو ليس بالعاجز عن استلالها من حضن أبيها ، ولم يجد دواء للبرء من سقمه فى سوى جذب نظيرة إليه . وقضى فى البقاع سبعة أيام على قلق وجزع تراءت له سنة طويلة من شقاء نهيك ، فإن فجيعته بابنة سليم العياش أرمدت عينه .

وجاهد فى خلع نظيرة عنه فاستمسكت بجنانه وهى نبضة قلبه وزاد خاطره . فلقد طغت عليه حتى بات منها خفقة . وضايقه هذا الاسترقاق ، بيد أنه عجز عن تحطيم النير . ولم يكن منه إلا أن حنا رقبته للقدر السليط مكرهاً على مصيره ، فلا بد من متابعة الطريق !

وأدهش ذهوله خدمه ، فالحياة خبت فى المشعل الوقّاد . كان بركاناً مضطرم اللهب فأمسى جمرة تصير إلى انطفاء وتحاموا الوقوف بقربه وقد هالهم جموده واكمداده ، ولولا أنهم موقنون أنه بهاء لأنكروه . فهو فى كآبة الخانع المكسور العين .

وملّ عزلة البقاع وكرهت نفسه الالتواء على نفسه فعاد إلى بيت مرى وقد صمم على معالجة ألمه ، سيحطم بكل سلاح تطول

يده سليما العياش المنغمس فى أقبح اللؤم . ورأى فى سليم عديلاً فى الخصومة يجب أن يفلّ من شوكته ويحطمه ، وإن لم يعمد فيه إلى الإذلال والتهشيم ففى أى مهواة تغور عزته ؟

وآثر أن يضرب الأب فى ابنته ، حيث وهم أنه سيد آمر . فيفصل نظيرة عن أبيها بما له عليها من سلطان ماتع . ولقد رسخ فى يقينه أن الفتاة لن تقف منه موقف الخشنة ، ستقتفى خطوه وهى المنتشية بحبه وتطيعه فى رغبته لا تقيم لعناد أبيها وزناً ، وأبوها ينحرها فى نضرة الأمل ورهافة الحسّ .

وأنهى إليها أن موعدنا الليلة ، فى حديقة الكوخ ، فالحديث جدّ خطير . وابنة سليم العياش فى غمرة الشجن ، تأكلها حسرتها ولا تجرؤ على إفصاح . فعضت جرحها وصبرت على المحنة ، فهى مجبرة على احتمال النكبة ولأبيها عليها سلطان الطاغية . ومشت فى الأرض صنما كئيباً يتأجج فى حناه الضنك فيطعمه كبده ونضارته ولا يتفوّه بشكوى .

ونظيرة وعت كل ما نفث أبوها من ضغن وثار فيه من غلّ . بما ذلّت عنها تضحية بهاء غندور وسعة حلمه . فقأ فى عينه سليم العياش الشتيمة فادّرع لها السماحة ، كأن لم يبلغ الإزراء به

مبلغ الهون . وما لان جانبه ، واستساغ دلال الأب الجافى ، لسوى إرضائها هى ، نظيرة ، القاعدة منه فى بهرة الضمير .

وأوجعت الفتاة المكابرة فى أبيها ، إنها لمكابرة فى الضلال . فليس لأشباه سليم العياش أن يرقبوا الحظوة العارضة ، ولكن الحقد الداعر مال بسليم عن استدرار عطف الزمن . وكادت تثب عليه نظيرة تمزق عن عينيه غلّه وتقيمه على هدى ، إلا أن الجرأة أفلتت منها ، فهى عبدة أبيها . وهالها جور القدر ، نشأت فى الحضيض ولن ترتقى عن الحضيض . فالرفعة حرامٌ عليها ، إنها لتستوى على زخرف من العلم والرقى ، ولكنها أشبه ببلبل فى قفص ، طائرٌ صدوح إلا أنه أسير . ليت لم يكن له شدوه وكان طليق الجناح !

ولا تبرح تتمثل بهاء فى ضراعته إلى أبيها وتكبر منه الحب الهاوى بالنبل عن معقله ، وتتخيّله وهو ينصرف وقد استعاد وقاره وسؤدده فتروعها فيه العظمة المطبوعة ، والمنعة المستهينة بالفلول والخدوش ، هذا سيد ابن سادة . ولقد لمست فيه أثر الصدمة مع استعصامه بالأنفة . بدا لها لوحاً محطماً ، أشلاء طرحى تنزو دماً ، إلا أنه ستر جراحه بالرزانة الجليلة الخطو ، المزهوّة

العين . وأحست الفتاة بمضض يعصر قلبها ويطفئ نور الأمل المشرق على غدها ، فأمسكت بالجدار المستندة إليه لئلاّ تتساقط ركاماً ، بعضها فوق بعض ، كالخائب فى منية ظلوم !

ولم تستوضح أباها الباعث على ارتياد بهاء الكوخ ، ولم تكن بحاجة إلى الاستيضاح . ولكن سليما أقبل ينشر على مسمعها أنباء البطولة كأنه يعود مرفوع اللواء من غزوة دسمة الغنيمة . قال بدَلّ ساخر مستفيض : «جاء المقيت يستجدى فألقمته الخيبة» . لست أدرى بأى فحة تجرأ على التماس ابنتى منى وهو يعلم أنى أشحّ عليه بالبُلغة !

وضحك ضحكة لو سمعها بهاء ورأى سليما وهو يؤديها انزات به الرعدة وتعثر منها بهولها ودمامتها . وخبت الضحكة لتذيع القولة : أصليت جده وأباه الحرب العوان وسأحرقه بنارها . نظيرة اسمى من أن تكون سلعة : لقد حاول أن يشترى بها سكوتى عنه فضلّ الطريق . لا وفقه الله !

واستطار فيه العجب . وارتاعت امرأته وهى تسمع منه هذا البيان الطائش ، المنتفخ جهلاً . قالت وقد اتسعت عيناها لفرط جزعها : طلب منك ابنتك ورفضت ؟

فضرب برجله الأرض وصاح بجفوة : رفضت وكسفته ، أيدهشكِ ما بدا منى ؟ . . . والله لن أجود عليه من نظيرة بشعرة . فإن مصاهرته لنا ضربة قاضية علينا . فالقرية بأجمعها تسخر بنا وتقول : « ما ابتسم بهاء غندور لسليم العياش حتى تناسى دعوته إلى الكفر بظلم السادة ! ... » . وأنا رجل قضيت عمرى فى مناوأة هؤلاء القوم على صدق فى العهد ، ورسوخ فى العقيدة ، فهل يجمل بى أن أنكث عهدى للين طارىء بدر من ابن الظالمين ؟ ... إنه لضعف فى الخلق ما تعوده سليم العياش . نظيرة لابن عمتها ، فهى من نسيجه ، لا لابن غندور الغريب عنها فى لونها وطينتها !

توجمت الأم لبست تقوى ازاءه على الحجاج ومشيئته لا تنقض . إلاّ أنها وقد تبينت فى الأمر سعادة ابنتها صاحت فيها المجازفة : ما بك اليوم على اضطراب فى الرأى ، أيكتب لابنتنا أن يطابها ابن غندور ولا ترضى به صهراً ؟ ... ربى ، هذا عمى وجنون !

وامتدت يداها إلى شعرها تخلجانه بغيظ . عناد زوجها مصيبة عضوض . فمن الظلم الإشاحة عن النعمة الهابطة ولم يكن يرتجى منها حتى ومضة عليلة . فهاج سليم العياش وتفاقمت فيه الغضبة

ومشى إلى امرأته بقبضة مرصوصة . متى استنسرت الخنفساء؟..
فوقفت ابنته بينهما تصيح : وماذا تفعل ؟ ... أتروم ضربها وما
أتت نكراً ؟

فأمضّه تدخل الابنة أكثر مما أوجعه اعتراض الأم . وصرخ
بنظيرة صرخة كالعواء وهو لايكاد يتماسك : يا لعينة ، أتشاطرينها
الميل والهوى ؟ ...

ولكمها لكمة لوتها على أمها ، فانبطحت الاثنتان فى الأرض
على نشيج كظيم . وفار سليم العياش فكاد يمزقهما بأسنانه وأظافره
ويدوسهما بنعليه . وهدر فيه التهديد الكاسح : والله إن تتلفظا
بكلمة تعارض رغبتى أشعلت فيكما النار : لا يبلغ بكما الحمق إلى
معاندتى فى ما أقرّ من تدبير . بهاء غندور اسم محرم عليكما
أعلانه ، حتى التفكير فيه . وإنى لأرتكب جريمة ترويها
الأجيال بعدى إذا خطرت لكما الاستهانة بما أنهى عنه !

وبدا فى سحنة إبليس . وانقطع بكاء الأم والابنة حيال
الوعيد الدميم . وجمعتا بعضهما إلى بعض كأن إحداهما تذوب فى
الأخرى . وما ارتدّ عنهما سليم الا وقد أيقن أن أنفاسهما جمدت
فى صدريهما ذعراً . فانطلق عند ذاك إلى ساحة القرية يذيع فيها

حكاية ابن غندور ويخفف باذاعتها من نقمته ونزقه .

واحتجبت نظيرة وأمها فى الزاوية تغوصان على دمع وزفير . أى جنون اعترى سليما فأزرى بالطالع المأمون ؟ . . . وجاهدت نظيرة فى الإمساك بقلبها الجامح وانحنت على أمها تؤاسيها قائلة بصوت مخضب بالأنين : لننزل على مشيئته . فهو السيد المطاع . حرام أن نثير بيننا قلقاً ينغص أيامنا فيشمت الناس بنا !

فأدهش الأم فى ابنتها هذا الهدوء النبيل . أدرعت الصبر فيما يضيق الصبر عن البلية . وضمت أم سعيذ هذه الابنة إلى صدرها تكبر فيها حكمتها وتقول : بورك فيك . أجل ، هو السيد المطاع ، فلن نعصى له أمراً . وهب الله لك الجلد على احتمال المصاب !

واشتد منهما العناق متحدثين فى أساهما ، ساهيتين فى نكبتهما وانحنت إحداهما على الأخرى كالزرع الجميم ، بل كالأمـانى المصروع بعضها فوق بعض فى ميدان الجهاد المقهور . فلا حركة ولا نبسة ، ولا تفكير . ان هناك إلا لوعة سائدة ، سادرة ، تلج فى البحران ، و ينكأها الجريض !

٦

نامت بيت مرى وقد أتعبها كفاح نهارها فى الحقل والكرم والغابة . نامت بملء أهدابها كأنها صريعة النشوة ، فلا غطيط ولا قلبة ، كالراتع فى غمرة من البلسم .

وفى سكينة هذه النومة الماتعة انسلّ بهاء غندور من داره على جناح الطيف يأبى أن تشعر به حتى الأرض الدارج عليها . وأسعفته الحلكة فى الاحتجاب فما وقعت عليه عين . وإذا به يقفز سور الحديقة فى كوخ سليم العياش الطروب اللهيف .

وما أبطأ اللقاء . فانطاق إلى الفتى خيال يستوضح بحذر : بهاء ؟

— إنى هو !

فامتدت اليدان إلى اليدين تعاقد ناعمة بعذوبة اللقيا . هذه نظيرة أقبلت على موعد . وانحنى بهاء عليها وشفتاه إلى شعرها يستنشق فغوة الطيب ولا يجرؤ على زمّهما فى قبلة . فهو فى خشوع التقىّ . وغار حفيف الكلام وعلا خفقان القلبين كأن فى القلبين أجراساً صامتة ناطقة فيسمع بأذنيه دقات قلبها وتسمع خلجات لبه . وهوت عن الأكتاف أعباء الزمن الباغى وتأجج الحب

الصُراح فى شعلته العذبة الضرام ، الولهى . وود العاشقان لو يطول الموقف وهما من الصبابة فى الذروة . ولكن بهاء أقبل لأمر أبعد شأواً ، ليس الضم منه إلا بعض اللذاذة . فقد جاء يستأثر بنظيرة كلها . فيرشف الخمرة ولا يبقى فى قرارة الكأس ثمالة .

وتمتمت شفتاه وهو يناضل فى سلخهما من الشعر المعطار : نظيرة ، أبوكِ يأبى أن يجمع بيننا . فهو يريدنا على شقاء . غير أنه لن يفوز بمبتغاه . سنعيش جنباً إلى جنب ، بهناء . وقد حبوت إليك أدعوك إلى اللحاق بى، أتكونين للحاق بى على أهبة

فأجابت بصوت رخيم غرّيد : أنا فى سبيلك أجوب الدنيا ؟

— لنذهب إذاً فالمجال فسيح للفرار واتقاء نميمة العيون. تعالى!

وأمسك بيدها يشد بها للرحيل . فاعترضت وهى تحاول أن تنزع منه يدها : إلى أين ؟

— إلى حيث يعقد لبعضنا على بعض فأقترن بك الساعة ونحقق مشتهى القلبين !

— وأبى ؟

— مالنا ولأبيك . لن يرضى أبوكِ . على أنه لن يحجم عن الرضا وقد أوثقنا الزواج !

— أيروقك أن أبرح المنزل دون مشيئة أبى؟

وانتصبت العقبة . أبداً مشيئة أبيها . قال : وهل يروقك الانتظار ريثما يرضى سليم العياش ؟ . . . ولكنه لن يرضى ، فنبقى حيث نحن ، فى غمتنا وبلبالنا . تعالى . السعادة تدعونا إليها . لا تخيبى للسعادة وجهاً وهى لنا بالانتظار !

فتراجعت وهى تقول : محال !

فلم يرقب منها الممانعة . قال : أبوك ضائع فى أمره . فليس يعاند فى زواجنا لسوى حمق راسخ فى نهيته !

فأعلنت بصراحة جافّة : سأبقى فى عصمته ريثما يملك الصوا .

فأوجعته كلماتها وقد شاع فيها الصدود ، قال متعجباً : أحقاً ما تعلنين ؟ . . ولكن الحب يكفر بالحوائل على مناعتها ، فأين حبكِ لي ؟ . . أخداع هو الوجد والوله ؟

فأجابت بصوت حازم لاسبيل فيه إلى التباس وتأويل : أبى عاش بكرامته ، فلا تدفعنى إلى تهشيم هذه الكرامة وأبى فى طريقه إلى الفناء !

— ولكنى هشمت كرامتى لأجلك ، ضحيت بسمعتى ،

أفلا تكونين مثلى ؟ . . . هل اتفقت وأباك على إذلالى ؟ . . .
شكراً ، عرفت الآن مبلغ هيامك بى !

ومال إلى الانصراف وقد التهب جبينه واستعر بالخيبة صدره أضاع فى حبها أيامه . فأمسكت به تقول : إلى أين ؟ . . . قف واسمع قبل أن تلوم !

— يكفى ما سمعت . وداعاً وعفواً عن جهلى وغباوتى !

فاعترضت طريقه وفى مقولها استرحام . قالت : لا تزد فى آلامى . لقيت فى حبك الأهوال !

فقال بمرارة نائثة : وأنا ماذا لقيت !

— أنت لو أبصرتنى فى النور لأنكرتنى لفرط نحولى !

— أريد ألا تبصرينى لئلا ترتعدى مما بى من كلوح وذهول !

قالت وهى تكافح فى الاهتداء إلى عذر تنقذ به موقفها : أترضى بأن يلعننى أبى ؟

فقال وقد استشاط : وأنت أترضين بأن ألقى لأجلك الموت فى كل نبضة ؟ . . قتلتنى فى جاهى وشبابى لا ترعين لى حرمة . إنى غريق الخزية والمذلة فى هيامى بك . فلماذا أجبتنى إلى حبى وأنت تعلمين أنه ضائع الأمل ؛ لماذا أبحت لى الانحدار فى المهواة

وأنت توقنين أنك عاجزة عن انتشالى منها، لماذا لم تحولى دون استسلامى إلى هوى يؤوس ؟ . . والآن ، الآن وقد بات حبك مالكى ، وأصبحت فيه عبداً تسوقنى عصا ، ليس لك أن تجبهينى بمستضعف الأعذار للخلاص منى . إنه لجريمة هذا التنصل ، هذا الفرار الدنىء من العهد المقطوع والميثاق المعلن !

فأبكاها وقد لمست فى بيانه صادق الشكوى . وهوى رأسها على صدره فى التياع أبكم . غير أن وساوسها تكلمت فيها فقالت لا تجهز على . يكفينى ما نالنى من أبى . رجائى كله معقود عليك ، فكن ضنيناً بى . لاتعرض عنى ولا تطرحنى فى المهلكة أستحلفك بالنبل الراسخ فى عرقك أن ترفق بى . ما عليك إذا صبرت لابد أن يصفو أبى !

فارتعشت شفتاه بكشرة الارتياب . قال : أبوك ان يصفو وقد نشأ على اعتكار الضمير . هذا رجل لذته فى الإقلاق والشغب . إن لم يجد عدواً يناقمه انقلب على نفسه يحرجها ويماكرها . ليس أمامنا غير طريق واحد لبلوغ الأرب . الفرار والزواج وإلا فلا أمل !

وتجسد هيامه بها فى لظى كلماته . ففى كل لفظة تتقد جمرة .

قالت والممانعة رائدها : ولكن أى أثر شائن أبقى فى نفس هذا الأب إذا عمدت إلى الفرار وطعنته فى بياض مشيبه ؟ . . ألا ترانى أقتله وأدعو بيت مرى إلى الزراية به ؟ . . . أنت تأبى أن ألطخ يدىّ بدم أبى وأن أمسى كومة فى الأفواه . فالفتاة الهائم بها ابن غندور لا يجوز لها أن تتسفل إلى هذا الدرك الدميم !

فما اقتنع . قال : أبوك يعلو مقاماً وأنت زوجة بهاء غندور فأين الوصمة والجريمة ؟ . . . لا تخاطبينى بالكلام الشبيه بالنفاخات المزخرفة ، الجوفاء . ما أنا فى حالة يطيب لى فيها التلهى بالعبث . إذا كنت وفية لبهاء غندور لحقت به على الفور إلى حيث يدعوك . فأظهرى له مبلغ وفائك !

فأحرجها ولكنه لم يظفر منها بطائل . قالت وهى تسعى للقعود به عن طلبته : إن كنت لا ترحمنى أفلا ترحم أبى ؟

فهدر : أريد أن أرحم نفسى . نفسى قبل الجميع . هل رحمنى أبوك ؟

— أعِد عليه الكرة ، فقد يلين !

فرقص منخراه وقد نفد صبره . ودمدم وهو يصرف بأسنانه : لقد حطمت كبرياء آل غندور أيتها المصانعة الخبيثة ، فلا تزيدينا

تحطيماً . أبوك لن أعود إليه وقد ملأ القرية افتخاراً علينا و باعنا جماع يديه نبلاً وشمماً . و إذا قضى عليّ بأن أفقدك ، أجل إذا قضى عليّ بأن أفقدك وأنا أرفض العود إليه — أتسمعين ما أقول ؟ . . . — فلا بأس أن أفقدك لإنقاذ بقوى الكرامة على ثلومها . بيني وبينك هذه الوقفة ، فإما أن تلحقي بي لتكوني زوجتي شاء أبوك أم رفض ، و إما أن تبقي درة يتيمة في ظلمة هذا الكوخ معقل المجد والشرف !

وغلى في نبراته الفحيح . فهو ناقم ساخر . وأبطأت نظيرة في الجواب فانتفض بهاء يقول بالحدة الصارخة فيه : ما بك ، هل تولاك الخرس ؟ ... أجيبي بلا زيغان . بتة لا أطيق الرجرجة . أتؤثرين أن تكوني زوجة بهاء غندور ومداك أرض الله على رحبها ، أم يروقك أن تظلي ابنة سليم العياش ودنياك هذا الكوخ الرث ؟

فلم يتبدل نهجها . قالت باللهجة نفسها : أنا على ما يريدني أبي!

— حتى إذا أرادك على الانفصال عني ؟

فظلت هي إياها في نبرتها ووقفتها ، وأجابت كأنها قتلت فيها للحب كل خافقة : حتى إذا أرادني على الانفصال عنك !

فهدمت فيه فضالة الأمل . وصال فيه سخطه على جموح فجلدها بقوله : يا كافرة ، كنت على بله يوم إيمانى بك . لم تخلقى للرفعة ، بل الذلة . ليس بوسعك أن تكونى فى الكأس الحباب، بل الحثالة . شئت أن أقيمك علىّ سيدة ، فإذا طبعك الأشلّ يأبى عليك ألا أن تظلى أمة . الضفدع لا تملك القوة على براح مستنقع الدرن . فأبقى لذاك النبيل ، العظيم الخطر ، المنبسط السؤدد مولانا أبيك !

وعمى . عمى فى قلبه وفى منطقه . وكاد لا يتبين طريقه إلى سور الحديقة . فقد تبذل فى حب نظيرة العياش حتى أمسى لا يقوى على نفض هوانه عنه . وطوى أزقة بيت مرى كرّةً من وعيد تتشظى . لقد دعسه سليم العياش حتى امحى . وأنكر قلبه وهواه . فهو منهما على براءة . بهاء غندور تقمص الساعة جسدا وروحاً يتنكران لبهاء الأمس .

ودارت الأرض بنظيرة فانهارت رمةً نسفها الاعصار . وهال أمها ألا تجدها فى الفراش والليل يذوب فى أنفاس الصباح فملكتها الرهبة . أين نظيرة ؟ . . . واستولى على الأم ارتياع تلاشت به قواها . وساورها أن الكوخ ملعب نازلة جائحة فأوشكت

أن تذيع مصيبتها بولولتها . إلا أنها خشيت غضبة الزوج وانتشار الفضيحة قبل جلاء اليقين ، فبحثت عن نظيرة فى الكوخ وهى تشدد من عزائمها لئلا تخونها . وزحفت إلى الحديقة والسراج بيمينها وقد خيّب الكوخ مرجاتها . وفى الحديقة بدت لها ابنتها مطروحة فى التراب كغصن طري قصفته الزوبعة . فتدافعت الأم إلى زهرتها المندثرة وقلبها يتفجر هلعاً . فقد تراءى لها أن ابنتها جثة احتضنها الموت . وارتمت بجانب نظيرة تصيح بلهفة انسجمت وحنينها الجازع : نظيرة !

فطفرت من شفتى الفتاة أنة أحيت بها رهافة الصيحة غفوةَ الحسّ . فاستطاعت الأم أن تتنفس وهى تسمع ابنتها تئن وتراها تفتح عينيها . وانحنت عليها بضراعة تقول : انهضى ، انهضى يا روح أمك قبل أن يدرى أبوكِ !

فما خافت عليها وقد اطمأنت إلى سلامتها من سوى أبيها . وأم سعيد لاحظت على ابنتها الزهد فى الدنيا بعد ما خاشن زوجها ابن غندور . فالحياة المتقدة فى نظيرة خبت فيها وباتت كزهرة يواثبها فى العشية الذبول .

وخوف الفتاة من أبيها نضا عنها خَدَرَ غيبوبتها . فنهضت

تنفض ما علق بثوبها من تراب مستندة إلى شجرة من التوت ضخمة الجذع ، فارغة القلب ، وقد طحنت أحشاءها السنوات النواقم على الفتوة والنضارة ، قالت الأم . بكسرة فى الصوت وفى الجناح : أيكون هنا مرقدكِ يا ابنتى ؟

فحبت نظيرة إلى الكوخ دون أن تفيض شفتاها بإيضاح . وذكرت ما اتفق لها. كلمات بهاء غندور لا تبرح تفرى قلبها وذهنها. هى ضحية مظلومة . غير أنها لن تكون لبهاء ما دام أبوها لا يرضى .

وغالبت حبها فى ثورته عليها وتمت لها الغلبة . على أنها لم تدرك الظفر إلا وقد أطعمته غدها . فآثرت صون أبيها فى سمعته على نعمى حبها . وذرفت على هذا الحب اللباب دمعة ، دمعة انعقدت فى الأهداب كأنها تأبى البراح . فهى أبداً على رقرقة . تحرق ولا تجف ، توجع ولا تؤاسى . إنها لأروع كفن خاطته نظيرة العياش لحبها الشهيد ، المجتاح !

٧

الربيع فى بيت مرى فورة غناء وقهقهة طرب . فكل ما فى الأرض والسماء يضحك ببراءة الوليد ولذة المعطاء . فالطير غرّيد ،

والجدول أنيس الحرير ، والساقية — رحم الله الساقية ! — أدت رسالتها ونامت بأمان . فلم يبق منها وهى ابنة الشتاء أثر . بل لم يبق من الشتاء أثر غير ذلك اللبد الأبيض فى هامات صنين وجبل الباروك وجبل الشيخ وفم الميزاب . ولولا هذا المشيب القرير المقنّعة به صلعة لبنان لأنكر الربيع أباه الشتاء .

وامتلأ الفضاء بالسنونو المزقزق كأنه أبداً فى تسابيح ، اللطيف الهيكل على سواد جناح . فهو وجه الربيع الباسم وطليعة موكب المغنين فى عرس الحقل . وعلى أناشيد السنونو استفاق بهاء غندور من خبله ذات صباح . فلم يكن بالنائم وهو لا يقوى على النوم ، بل كان فى غشية المفجوع بأمانيه السمان .

وألقى نظرة على ما يلفه من رواء فاشتد به الكمد وأطرق . لقد ذوى قبل الأوان ربيعه ، فكيف يحفل بربيع دنياه ؟ . . .

وثقل صدره . فهو يتنفس بمشقة . وخشنت طباعه . فليس يطيق حديثاً ولا تحية وقد كره الناس ، بل كره كل من يدب فى أرض ويرف فى سماء .

وهام بالعزلة فنفر إلى الغابة وقد أضحت مأواه . وهناك ، تحت أشجار الصنوبر ، يقتعد الحجر ويلقى رأسه بين يديه ويضيع عما

حوله . فالنور ، حتى النور ، أمسى بغيضاً اليه . وينأى عنه الفكر أحياناً ، فكأنه لولا خفقة قلبه قطعة من جماد . ويأتيه هذا الفكر فيثور ، يثور على عينيه وكبده وقد ألقت به فى الحقارة . ويهيج وهو يذكر سليما العياش ، تلك البومة الهائمة بمعادلة النسور . ويتعاظم سخطه كلما خطرت فى ضميره ابنة سليم العياش . وكم تخطر فى هذا الضمير وهى مصدر نكبته وضناه . يا للكاذبة المودة ، لو استوت فى هيامها على صدق لأفلتت من دلال أبيها ومشت فى أثر قلبها . ولكنها محتالة تراوغ فى ادعاء الحب وهى منه على جفاف !

ويقسم بهاء على هجرها . لن يعود إلى الخائنة . وإن هى أقبلت إليه تعان زلتها وتسأل الصفح عنها رذلها ونفض فى وجهها امتهانه لها . فليس يلتفت إلى السائلات . ويعتزم أن يسلو . ويعتقد أنه سلا . وتهد أسورة أشجانه ويطرح عنه آلامه . لا كانت نظيرة العياش . جهلها كأنها لم تنعم منه ببال . غير أن هذا السلوان لا يثبت أن يطوى ستاره ويتفاقم من الحب الجريح الغليان .

وهكذا تنقضى الأيام . بين صحو نزر وسكرة طفحى . لن

يقوى بهاء غندور على مغالبة هواه . فالهيام أعمق أثراً من أن تذهب به جفوة . واضطر بهاء إلى الإقرار ، مثله فى الصدمة الأولى ، بعجزه عن المناهضة . فليس حبه غمامة تبددها نسمة . وضاق به صبره . فما دام النسيان غير مستطاع أفلا يجمل بالمكره على السلوان العودة إلى الاسترضاء ؟

وغمزته خواطر سود . بم أساء إلى سليم العياش، وأين المضيمة فى زفاف نظيرة إلى ابن غندور ؟ . . أيكون الفتى ممن نبذتهم النخوة فرجح عليه بنو العياش جاهاً ومكرمة ؟

وود النجاة من حيرته . وخيل إليه أن الشفاء هو فى الانكفاء إلى جحيمه ، فى الإحتراق بنار مذلته وليس يقوى على الفرار من الويل الجارف . وأثقلت بليته همته فأباح فيه للقدر العاتى النهى والأمر ، كأنه نتافة من غمامة فى الجو الصاخب . لتدفعه الريح أنى شاءت . لتبدده ذرات خفية فى متطاير هبو بها لا تبقى منه على نزفة من جلالة . فهو ليس أول من فضحه حبه وزلت به القدم فى مهوى الصبابات .

وأنفذ إلى نظيرة يدعوها إلى اللقاء المعتاد . فكان الجواب أبلغ من طعنة فى النحر . قالت ابنة سليم العياش : ما فى اللقاء جدوى ،

أبى لا يرضى . ليدعنى بهاء على شقائى فى علتى المتلاف !

ولم تنكر أنها مقيمة على العهد . ولكن العقبة أبوها . وتعمدت إيلام بهاء وهى تمانع فى لقائه . قد توجعه الصدمة فيستيقظ من بحرانه وينسى . وهى تريد منه أن ينسى تفريجاً للكربة المستعصية . فيميل عن حبه الكؤود إلى حيث يسعد ويهنأ . وغاب عنها أنها زادته قلقاً وغشياناً ، وقد أذابت فيه ضلالات المنى . فوقف فى اثنين من خدمه بلا إخلاصهما وجرأتهما يقول والكلمات تتصاعد من حنجرته شفاراً قاطعة : اخطفاها وانطلقا بها إلى مزرعة البقاع . لا تجعلا المقصورة مأواها احبساها فى أحقر كوخ واكتما خبرها . سأسبقكما لإخفاء الأثر والتضليل اضربا ضربتكما بعد أسبوع من رحيلى واحذرا رصد العيون . يجب تدبير الأمر فى ليل !

فانحنيا صامتين . هما يعانيان من الألم ما يعانى . فقد أدركا مصابه المهيض . وولاؤهما له ألهب حماستهما فى إرضائه . سليم العياش تمادى فى جلافته والحط من قدر ذوى الكرامة .

وماج فى صدريهما الكره والضغن . على من يستأسد سليم العياش فى رعونته ؟ . . . نملة تحاول أن تصرع نمراً . وكانا فى

ريب بما زعم والد نظيرة فى ساحة القرية متبجحاً بالحط من منزلة بهاء غندور . وضحكامنه طويلا . أما الآن وسيدها يدعوها إلى اختطاف الفتاة فقد آمنا بثرثرة ذلك المبرطم أبداً ، كأن ليس فى رحاب دنياه من تجدر به ابتسامة !

وتكركرت فى الحنجرتين الشتائم . وعلا الوعيد مثله بين شدقى جبار مغبون . فلم يكن بهاء فى فورة تضارع سورة حزازاتهما وتوارى الشاب عن بيت مرى وهو يفيض برغبته . يجب اختطاف نظيرة . هذا هو الدواء النجيع ؟

وأبى أن يعود إليها . ففى جوابها الحاطم ما يكفى مشقة الجدل العقيم . سيبلغ أمنيته بقوة ساعده لا بالسؤال المهين . وما توانى عن السؤال إكباراً منه لحبه ، فماذا جنى ؟ . . التسفيه والمنقصة والآن ، وكل طريق إلى الحسنى سدت دروبه ، لم يبق غير العنف ولا بد من العنف لاستعادة السمعة المرضوضة بريئة من الكلوم .

ودوت بيت مرى بأجمعها أن بهاء غادرها إلى مزرعته فى البقاع . وقال من لهم فى كل موقف رأى ينفثون السخر واللؤم : نظيرة أضاعته . فليس يقر له قرار ؟

وتمايل سليم العياش فى الساحة والأزقة مرنح الأعطاف ،

ضاحك السن . هو وحده استطاع تحطيم أجنحة الصقور . فلقى من بنى قومه الإعجاب . وما خلا من الحسد. إلا أنه حسد خفى لم تطل نوائبه . فما دام بهاء لم يقترن بنظيرة فلا سبيل إلى الغيرة وليس من جاه علا ولا حسب ساد .

وتهامس الخادمان فى تدبير المكيدة. ستنفجر قذيفتهما فى الليل ساعة تخلو الطرق من وقع الأقدام وجولان العيون . وتجسسا أخبار سليم العياش فى لياليه . أين يقضى سهراته ؟ . . . وعلما ذات ليلة أنه فى منزل صديقه نادر الصراف، وأن نظيرة بقيت وحدها فى الكوخ ، نظيرة المحطمة الرجاء ، المقيمة بمعزل عن مباهج الدنيا كأنها من عالم بعيد . فقد ضحت فى سبيل أبيها بأجمل عاطفة وأعز أمنية . وباتت لا تشتهى غير الفناء فى مرضاة هذا الأب بعدما انتثر حبها ، وجف يومها . منذراً بشؤم غدها .

ولاحت للخادمين النهزة فما قعدا عنها . فطرقا باب الكوخ يسألان عن أبى سعيد . فأقبلت نظيرة والمصباح فى يمينها تفتح لهما . على أنها ما كادت تراهما حتى واثبتها الريبة . هذان خادمان فى قصر بهاء غندور . فهى تعرفهما ولا تخفى عليها مغامراتهما . وحسبتهما مقبلين للفتك بأبيها فاهتز المصباح فى يدها وأوشكت

أن تسقط إلى الأرض . وعصيها الكلام لفرط ذعرها . وخشى الخادمان أن تفيض شفتاها بصرخة الارتياع فتفضحهما ، فوثبا عليها بانقضاض خاطف يكمان فمها و يوثقانها . وحملها أحدهما إلى مركبة القصر المقيمة على أهبة . وأعاد الآخر المصباح إلى مكانه وأخفى تحت وسادة الفتاة رسالة مختومة . وأقفل الباب بالمفتاح وألقى المفتاح إلى المصطبة ولحق برفيقه إلى المركبة ، فانطلقت مرنة عجلى كالشتيمة فى الفم الغضوب .

ولم تحتمل نظيرة الواهية الأعصاب صعقة المفاجأة فأغمى عليها وتعادلت كفتا الليل فعاد سليم العياش وامرأته إلى الكوخ وقد ثقلت أعينهما بالنعاس يغشاهما إلمامة أثر إلمامة . وهاجهما حب الفراش فتلذذا برفاهة الوسائد قبل الارتماء عليها .

وسليم العياش عندما يبرح فى الليل كوخه لا يشك فى زناره مفتاح الباب شأنه فى غليونه ، بل يخفى هذا المفتاح فى ثقب الجدار . وراء ساق الدالية ، فلا تحدجه عين . وفى العودة يتناوله من مخبإه دون أن يزعج أحداً بطرق الباب ، و يفتح و ينسل إلى فراشه على مهل و ينام بأمان . غير أنه لم يقوَ فى هذه الليلة على إخفاء المفتاح فى الثقب الهاجع الساهر ، فالغسيل المنشور

على المصطبة لم يجف" ، فعلى نظيرة أن تلمه قبل الرقاد .

وأوجع سليما أن يدق الباب فيوقظ ابنته من نومتها . ولكنه على اضطرار . وطرق بمتن يده الباب فلم يسمع جواباً . فأعاد الكرة وليس من مجيب . فالتفت إلى امرأته يقول : ليس من عادتها أن تغرق فى ضجعتها ونحن خارج المنزل ، فما بها الليلة ؟

وعلا صوته يخدش أذن الليل الساجى : نظيرة ، نظيرة ؟

فلا جواب . وحبت الأم إلى نافذة حجرة الفتاة تنقرها وتلق بشفتيها إلى ثقب فى الخشب منادية ابنتها : نظيرة ، يا عين أمك ، هلا نهضتِ ففتحتِ لنا ؟

وغضب سليم العياش وقد أمضه الانتظار . وطعن على ابنته منددا بسهوها . أتجهل أن أباها وأمها سيعودان من سهرتهما فغاصت فى رقاد لا يلتفت إلى يقظة ؟ . . وهم بأن يخلع الباب . فقالت امرأته : رويدك . قد تستفيق . عد إلى مناداتها . فلا بد أن تسمع ؟

ولكنه لم يسمع . فألقى بكتفه إلى الباب ودفعه بشدة طاغية. فقضقض البـاب دون أن تلين فيه جنبه . فجاش سليم حنقاً وأهوى بجميع قوته على الخشبات المعاندة يروم تحطيمها . ففرقع

الباب ودار على لولبيه يخبط الجدار بصخب الزوبعة . ودخل سليم العياش عارماً ، معتزاً بصلابة عوده ، هادراً كالموج الحاقد فلماذا استرخت ابنته فى رقدتها ؟ ... وهجم عليها فى فراشها يبغى أن يهزها فى قلبها . وصاح بعد عربدة تموج بالشتيمة : أتنامين كالصخرة أيتها البليدة الشعور ، يالئيمة ؟

ولكن أين نظيرة ؟... فالفراش يخلو منها . وليس فى الكوخ أثر يدل عليها غير ذلك المصباح الأعمش المنتفض على حشرجة فانقلبت ثورة سليم العياش إلى ارتياع وهول . أين ابنته ؟ ... هل فرت وبهاء غندور ؟... ونادى بعواء المستغيث وقد انطفأت فيه العربدة . فأيقنت امرأته أنه لم يهتد إلى نظيرة . وذكرت ليلة الإغماء فى الحديقة فقالت مستطلعة : ألا تكون ابنتنا فى فراشها ؟

فأجاب وقد لوته الصدمة : أراها ركنت إلى الفرار يالفضيحتنا فى القرية ؟

وشعر بالعار يكسفه ويمسكه بخناقه . نظيرة رفعته إلى مصاف السادة ونظيرة أهوت به إلى ما دون مواطىء الأقدام . ووقف وهو يحس أنه يغور فى الذلة . وخفت امرأته إلى الحديقة تبحث فيها عن الفتاة فما لاح لها خيال يرشد إلى ابنتها . فعادت إلى

الكوخ تجول فى حناياه وهى تكاد تسيل هلعاً . وعثرت بالمفتاح المطروح على المصطبة فى بحثها عن الفتاة أمام الكوخ . فلم يبق لديها ريب بأن نظيرة تعمدت الهرب . ولكن إلى أين ؟

وتعالى فى سليم العياش سوء الظن نباحاً : هى فى دار ابن غندور لها الويل . قضت عليه وعلى نفسها بالموت !

فقالت الأم بنواح قصيم : حرام أن ترميها بهذه الفرية وأنت أدرى الناس بها . ابنتك أرفع من أن يلطخها شين !

فجلدها بصيحته : لعنة الله عليك وعليها . ما عرفت الهضيمة إلا يوم درجت هذه المشؤومة إلى النور !

فانفجرت بعد طول اصطبار . لقد وهب لها الضغط المتمادى مسكة من رجولة . قالت ودموعها وعيناها وصوتها تشكوه وتندد به . أنت العلة ، أنت الملوم . أقبل السعد فى خدمتك فركلته . جاء نظيرة من يسمو بها إلى مقام الملوك فسددت دونه الباب . يا ظالم ، أنقذك الله من يوم الحساب !

وارتمت فى فراش ابنتها تولول وتنادى ابنتها . وهال سليماً ما هو فيه من نكبة وتهمة فضاع . وهجم على امرأته يمسك بشعرها والوعيد ورشاش الوعيد يزبدان فى شدقيه : يا عائبة ، متى

استنسرت فيك هذه القحة فأصبحت تخاطبيننى من شاهق ؟ ...
إن لم تخطفى صيحتك خطفت روحك !

وضربها برجله فأزاح الوسادة عن مستقرّها . وانتفضت فى عينيه الرسالة المختومة فراعه أمرها ممن هى ، وماذا فيها ؟ . . .
وتناولها بيديه وأدرك أنها تبطن السر . ولكن من يقرأها له وهو يجهل القراءة ؟ ... وتناسى امرأته . فهو بحاجة إلى من يحل اللغز و يفك الطلسم .

وطار بالرسالة إلى صديقه نادر الصراف . نادر وحده يجوز له الاطلاع على السر . وقرأ نادر برهة فى قلبه و بارتجاف فى صوته و يمينه : «غادرت المنزل إلى حيث أنسى دنياى . لن أعود إليكم . شقائى طال فكرهت الحياة . تناسونى وارحموا ضعفى — نظيرة العياش »

فانتشرت الرعدة ، كأن جسماناً حبيباً هوى فجأة فى مدرج الأكفان !

٨

ذلك السهو الريّاب ، المستديرة عليه العيون فى بيت مرى حدث ملياً عن دهمة الويل الباسطة على القرية كابوسها الفادح وتفتحت الأفواه على جمود وخرس . فليست تطيق إفصاحاً نظيرة العياش برحت منزل أبيها ضائعة الخطوات ، فكأنها بسمة من ندى تغلغلت فى مطاوى الريح .

وزحف القوم بأجمعهم إلى كوخ سليم العياش وقد ران عليهم الصمت مثلهم حيال ضريح تلقمه المجارف التراب . وغصت المحاجر بذوب الأسى كأن المصيبة تعصب كل جبين . فالكوخ فى مأتم أخرس ، إلا أنه فاجع مهيض .

وارتمى سليم العياش فى الزاوية كتلة منبوشة مبعثرة كجدار تصدع وانهار . فلا عزم ولا وعى وهو لم يكن يقوى على رفع رأسه للنظر إلى من حوله ، بل لم يكن يجرؤ على النظر إلى من حوله وقد قذفت به ابنته فى مستنقع موبوء .

وخشع المؤاسون ازاء الأبكم الطعين فما خدشوا السكون الساجى بوشوشة ، بل جثموا فى المقاعد أخشاباً على أخشاب .

ولولا غمامات اللفائف المتصاعدة من الشفاه مجة تلو مجة ، العاقدة في جو الكوخ سماء شفافة زرقاء لحسب الرائي كوخ سليم العياش معبداً للابتهال والسجود .

وتحامت الانظار سليماً كأنها تخاف عليه من خمش وقعها . وتحلقت النساء حول أم سعيد يذبن الدمع في غيبوبة من ألم . وودت الأم النطق فانحبست كلماتها في حنجرة بحاء ولقد استطاعت أن تتمتم بهمس كليل ويداها تصطرعان : ولدي ، ولدي !

فهي تبكي ابنتها وليست تدري أميتة هي نظيرة أم مقيمة على رمق . ويتأوه أبو سعيد دفعة على دفعة . فهو يتوجع في كبريائه المقروحة . وتطلق شفتاه زفرات لاعجة تفيض حقداً وغلاً لا ذلاً واستكانة . فلم يشأ الاقتناع بأن ابنته غادرت المنزل إلى حيث تنسى . فما نأت الا لتلحق ببهاء . حبها لابن غندور استنفرها من الكوخ . وينشوي سليم على نار وهو يفكر في انتقام بهاء منه لقد طعنه في حرمة شرفه طعنة لا يرجى منها برء .

ويطفو على شفتيه الاتهام . ويوشك أن يفضي بزاخر المكنون . بهاء غندور سرق نظيرة . على أنه لا يملك الدليل على التهمة . فتنطفىء كلماته وهي أجنة ويكره على الصمت مقهوراً .

يعرف الجانى ، ويوقن أنه الجانى ، ولا يستطيع أن يرميه بحجر.

ويموج رأسه لفرط ارتباكه . فهو متعب بحمل رأسه ، بل متعب بنفسه ولم تعصمه ابنته من الزلة . وطوى بعضه على بعض أشبه بالمقعد الكسيح . وهاجت فيه النيات الحمر فأضحى طالب ثأر . ولغت فيه النار فمال إلى اطفائها بالولوغ فى الدم .

وأبى أن يشكو أمره إلى حماة الأمن . ماله ولهم . سينتقم بيده لكرامته . لا يزال فى أعصابه إقدام وفى نفسه همة مع هول الغاشية . وملك القوة على الابتسام وأبناء القرية يسألونه عما يريدهم عليه. قال شكراً لمروءتكم . لقيت من عطفكم ما أنسانى الفاجعة لى . أود أن تقيض مكافأتكم فى المسرات !

وأبى إعلان الحفائظ الراتعة في قلبه . على أنه إذا كتم التهمة فما صبر على كتمانها الناس . فالقرية على مطلق الأفواه المدركة فيها لفظت عفواً اسم بهاء غندور والنبأ يذيع أن ابنة سليم العياش توارت عن بيت مرى فى ليلة ريّا الظلام . وقال الجميع : ابن السادة انتقم لنفسه من سليم البعيد الخيلاء !

ولم تحفل القرية بالرسالة . هذا تضليل مزركش . وما تقول الرسالة ؟ . . . نظيرة تدلى فيهـا بكرهها للحياة و بانطلاقها إلى

حيث تنسى . واين تنسى ؟ . . . فى كنف بهاء .

وصكت القرية . فالجهامة لم تطل سيطرتها وليس ثمة زهوق أرواح . ونضنضت الألسن بما تشاء ، هذه الألسن الملتوية منذ هنيهات قلائل على خرس حزين . فلم تجد بعد انسلاخها من الوهلة الأولى ، غضاضة على سليم العياش فى استئثار بهاء بنظيرة هذا إكليل غار لا وصمة عار . فالحبيبان وقد لقيا الصدمة بحثا عن أقرب طريق إلى السعادة اليانعة الثمار .

ولكن أين بهاء ؟ . . . إن القرية لتعلم أنه منذ أسبوع فى مزرعته فى البقاع . فالاختطاف وقع والفتى ليس فى القرية ، فكيف ترسو عليه الظنة وهو بمعزل عما حدث ؟ . . . والرسالة المضللة ، و بعد بهاء عن بيت مرى ، مالا بفئة من الناس إلى الإيمان بأن بهاء برىء الذمة ، نقى الثوب . ولكن سليماً أبى إلا أن يستبحث ويستوضح ، فما حقق منه الرسل علالة الرجاء . نظيرة ليست فى البقاع و بهاء وحيد فى داره ، كئيب الغدوات والروحات . لا يقيم على دعة ، ولا يأنس برفيق . فقد يقضى نهاره بطوله ولا يختلج فمه بصوت . غير أن سليماً لم يقنع بما انتهى إلى مسمعه وقد ظل من بهاء على ارتياب .

وخطر له فى ساعة من ساعات اليقظة أن ينضو عنه ظنونه . ربما فزعت ابنته إلى دير من الأديار، أو ألقت بنفسها فى مهواة . فحمل عصاه وجرابه يغزو أديار لبنان المنصوبة فى رؤوس التلال كالأعلام وقادته خطواته إلى منتأى الأطراف . وهو كلما فتح باباً أغلق عليه السر البعيد القرار . فليست نظيرة فى هـذه الصوامع ، جارات السماء .

ولم يحمل إليه الرعاة خبراً عن المهاوى . ولا أفصح الموج عن اللفظة الشرود . فليست نظيرة فى مكان كأنها لم تخلق ولم تقذف بها الأرحام . فعاد سليم العياش أسيان خزيان ، تفضحه النازلة وتصفى دمه . فهو هزيل عليل ، يتعثر برجليه وقد نبتا عن الخطو المسماح .

وأين نظيرة ؟ . . . فى قبضة بهاء غندور . ليس من ريب إنها ملك يمينه . وكل ما فى ضمير سليم العياش من حدس وتخمين بل كل ما فى نفسه من إيمان ويقين ، حمله على الجهر ببيان الواثق بقولته إن نظيرة فى حيازة بهاء .

وامتدت به قدماه إلى البقاع يبحث عن ابنته . فلن يهدأ فى القرية إذا لم يرجع إليها بفتاته ولو رمة بالية . وفى البقاع حدثته

النفس بقتل بهاء غندور وهو مصدر شقائه . سيقتله . فلا يزال في الشرايين دم . ولكن أين الدليل على الجرم لتبرير القتل ؟

وما أفضى البقاع بالأحجية . جال فيه مراراً سليم العياش وطاف حول قصر ابن غندور ، وانسل إلى هذا القصر متنكراً بزى المستجدى فلم يظفر بطائل . فالقصر يخل بسره . و بدا بهاء لعين سليم ، كما حدثه عنه الرسل ، سقيم الخاطر ، مضطرب الأسارير . وحالة الفتى جنحت بوالد نظيرة إلى الاعتقاد أن ابنته ليست في يمين بهاء ، وإلا لأشرقت فيه النضرة وضحكت المنى العذاب .

وحار سليم العياش في تعليل اللغز . أين ابنته ؟ . . . ورجع إلى بيت مرى أغلف القلب ، مطبق العين غادرها على تعلة وعاد إليها على إخفاق . ولم يجد غير نادر الصراف يبثه ظلامته . ونادر هذا الصديق الأمين ، جزع لاختفاء نظيرة جزع أبيها . ولكنه وقد لمس في سليم العياش رثاثة القوى بعد اكتناز العود مال به إلى طوله الأناة . قال برفق المؤاسي : لا بد أن تقف يوماً يا صاحبي على النبأ الواهن ، فلا تيأس من فسحة الآمال !

وسليم ، وقد قذفت به مصيبته عشرين سنة إلى الأمام ، وقد تهدم حتى بات كالجذع النخر ، المرن ، يهز برأسه و يقول بصوت

يلهث ويفرقعه السعال : أين هى نظيرة يا نادر إلى متى أرصد أخبارها ولا أفوز بخبر عنها ؟ . أمسيت أخشى أن يطوينى القبر قبل أن أعرف مصيرها. ولست أريد أن أموت إلا وقد عرفت.. وانتقمت !

وكلمة « الانتقام » تطن وحدها فى بيانه فالتلاشى يقيم على لفظاته جمعاء ولا تعلو النبرة فى سوى نبسة الانتقام . فتنفجر من فم سليم العياش قاصفة مهتاجة . وعلى الانتقام وقف سليم حطام أيامه . فيقول نادر : تنتقم ممن ؟

— منه وعنها !

— منه ؟ ... ومن هو ؟

فتنتصب قامة سليم العياش على التوائها ، وتبرق عيناه بالكره الناخع ، وتتشنج أعصابه ، ويخشوشن صوته ، ويصيح فيه الحقد الأكول فيزمجر : من خاطفها ، من بهاء غندور !

ويود لو تقبض يداه على خناق الفتى فلا يبقى فيه على نفس، وينقذ من الشماتة والمثلبة كرامته النائحة . وذات يوم وهو يعيد على مسمع صديقه حديث الانتقام قال نادر الصراف : ألا تزال تتهم بهاء باختطاف نظيرة يا صاحبى ؟

فصاح وقد استعاد وقفته الساخطة : هو هو الجانى علينا يا نادر . هو وحده . هدم أنسنا وذهب بصفاء عيشنا . نادر ، يجب الانتقام من سارق العرض وداعس الكرامة . ولقد قصرت يمينى عن الثأر للشرف الطليل ، فاكتب إلى ابنى سعيد وابن شقيقتى نصير الهانى كى يقبلا لإغاثة الشيخوخة العاجزة . اكتب اليهما أن أسرعا غير حافلين بما عز وغلا ، فإن شرفكما لفى زلزلة . قل لهما هوت بأبى سعيد السن عن الانتقام للسمعة الرازحة بالأسمال . فليقطعا إلى البحر سباحة إذا ضاق بهما الأمد عن ركوب البخار . لست أطيق أن أموت قبل أن أروى الأرض بدمه ودمها !

واعتلج فيه الذل والأنفة فهو أنوف ذليل . العرض الطعين يهيجه إلى محو الوصمة ، والسن العتية تقعد به عن غسل الدرن وشفاء الحزازة . فتردد نادر الصراف فى الإجابة وقال : لا تحرجهما . دعهما على طمأنينة . من المجازفة الذميمة أن تضرم فى صدريهما النار . أبلغ أمرك إلى حماة الأمن لإنصافك من العدوان !

فلم يصغ إلى نصح ، يجب أن يقف ابنه وابن شقيقته على نبأ الملمة ، وأن يجبرا بأيديهما الخاطر الكسير ، ويمحوا اللطخة

المستأسدة في الجبين . قال بلجاجة : اكتب إليهما . نحن ننتقم لأتقسنا بأنفسنا . أحس بأن منيتى تدهمنى ومن الظلم أن أموت وروحى تتململ فى كربتها . نادر ، أصبحت أخشى العيون المسددة إلىَّ ، فتلوح لى كل عين شامتة ، وأتوهم كل فم مورد سخر ، وينبو بى فراشى فلا أنام الليل . ويخيل إلىَّ أن الفراش والليل يضحكان منى كأنى هزأة المقادير فيعترينى جنون . لا تلمنى يا صاحبى ، فالضربة توجع حيث تنقضّ . وإنى من ضربتى لفى ألم الثاكل وخزية الذليل !

وتضاءل حتى كاد لا يبين . فانحنى ظهره وأضحى وهو يستند إلى عصاه أشبه بالقوس المشدودة الوتر . ولكنها قوس عطلت من سهمها . وبكى هذا المحدودب الدامى الحشاشة بكاء الجبار الصريع . وبدا فى رثاثته لنادر الصراف فلوى من نادر بسطة الجناح . فالمذلة اللاصقة برفيق صباه لطمت قلبه . وما تماسك عن دمعة هاضت ناظريه . شيخان جلبتهما البلية فاندثرا تحت ركامها الطاحن . وسادهما الجمود الخشيان وقد ضاقت بهما البلية عن الإفصاح .

ولكن أضغان سليم العياش الفائرة لم تمل به عن المناداة

بثأره المنيم . فخلع عنه تلاشيه وعاد يصيح بنادر الصراف كمن لدغته عقرب فاستشاط : اكتب إليهما أن اقبلا . أبو سعيد وهى ساعده وفى الميدان ضحية من لحمكما ودمكما ينهشها الصغار . شرفكما تمضغه فى بيت مرى الأفواه وتدعسه النعال . اكتب ، يجب أن أرى بعينى الاثنتين الدم يسيل فى هذه الرحبة ، فيخضب بلونه الأحمر التراب . يجب أن يحس الحى والحجر أنى انتقمت، واسترحت ، ونضوت عنى العار !

وغلى غليان المعاند . فلم يجد نادر الصراف بداً من الإجابة . فكتب يقول : « نظيرة توارت عن المنزل . قد يكون خطفها بهاء غندور ، أسرعا إلى البحث عنها ودفع الفضيحة عن العرض الذبيح . أبو سعيد خانته القوة فى الانتقام. لا تبطئا . ففى البطء ازدياد هوان ! »

وحمل سليم العياش بنفسه الرسالة إلى البريد يحرص على إيداعها بيمينه مؤتمن النفاثات . هذا سلاحه فى بعث الكرامة. واحتجب فى كوخه يرقب الفتوة فى لظاها تدين بصلابتها العارمة الغدر الكاسر المقحام .

٩

عشرون ليلة تقضت فى مزرعة البقاع على وحدة فى اللون والنغمة . نظيرة لن تكون لبهاء إلا إذا أجاز لها أبوها أن تكون فى عصمة ابن غندور . و بهاء يضرع إليها أن كونى لى فتجبهه بالصد والنفرة : محال ، محال . اقتلنى ، انزع منى حياتى ، فلن أكون لك برضاى . قد تستعين على بالقوة ، قد تعتمد فى النيل منى البطش ، فتنتهى كما بدأت ، وتجاوز القحة إلى قحة أمضى وأسكنك ان ترانى أجيبك إلى طلبتك . وسعك الانتظار . فالموت أقرب إلى من تحقيق مشتهاك . كنت حلماً عاتياً فكن ذلك الجلف العاتى . ليس ما يمنعك من المضى فى الغدر وتشويه الأعراض !

وأقامت منه على جفوة مستعصية لا تتيح له أن يمس أطراف أناملها ، ولا أن يمسك بأطراف ثوبها . وأكرم فيها الممانعة فلم يتوسل إلى الإكراه سيستميلها إليه باللين ، بالإقناع . وحاول فيها هذا الدواء فأخفق ، إلا أنه لم ييأس من المهادنة . لا بد أن تخلع عنها نظيرة يبوستها وتندى بمواهب الحب . فالقلب المضمخ

بطيب الجوى لا يملك القدرة على سد منافذ الطيب .

وانتظر بهاء على نفاد صبره . فلم يشأ استعجال الزمن . ولا يبرح يذكر لقاءها الأول فى مزرعة البقاع وقددرت بأنه اختطفها فماجت كتلة من بغضاء ونقمة . ولقد أودعها الخادمان منزلاً مهجوراً فى الضواحى ، ودفعا إلى ابن غندور سائق مركبته يبلغه نجاح الخدعة . فانتعشت فى بهاء الأمنية المقهورة ووثب طافح الشوق إلى المنزل النائى . نظيرة أضحت منه ملء اليدين . فهى له من قمة رأسها حتى قدميها ولم يبق لسليم العياش ، أبيها ، أن ينازعه إياها .

وما جهل بهاء أنه سيلقى منها التنديد الصافع . فالاختطاف ليس مما يستطيب فؤادها . وكل ما بعث فى خاطره الأمل أنها باتت حيال المكتوب عليها ، ولا بد وقد وضح لها موقفها أن تنحنى إزاء الحكم المبرم فما جاهدت فى اتقائه نفذ وباتت رهينة الأقدار .

ودنا منها بهاء وفى شفتيه البسمة ، وفى جوانحه الحنين . ولما أبصرته نظيرة مقبلاً طروب المهزة ، معصوب الجبين بنشوة الظفر تجلت لها المكيدة فى هولها وخطرها وكانت منها على رجراج

ظنة: وقاسته بعينها تنظر إليه من زاويتيهما بازدراء كأنه الفرخ حيال النسر. ورشقته باحتقارها وهو يحبو إليها على رغبة تحرجها الرهبة. قالت: إن تكن صاحب هذه المائدة أيها السيد فلست أهنئك بانحدارك إلى الغدر. إنها لنذالة لا أرتضى لأمثالك، أبناء الكرام، أن يتمرغوا فيها: ولكن عفواً عن جهلى، كنت أحسبك أرفع قدراً!

وتسلسلت كلماتها فى هزء قاضم يحز فى العظم. وانتهرها الخادمان وزجراها عن الخبائث تلطم بها سيدهما، فنهاهما بهاء عن التعرض لها. قال: انصرفا. أريد أن أقيم وإياها على خلوة!

فدارا على نفسيهما كأنهما على لولب ولفظهما الباب. ووقف بهاء من نظيرة على ما دون الخطوة وقال بتأثر المؤمن بحسن صنيعه: نظيرة، لا تعتبى. حبى لك أهاب بى إلى المجازفة. حاولت فيك مجهودى فما ظفرت بطائل: رضيت بالزاق عن مقامى كى أحظى به نخاب مسعاى. أما رأيتنى أقهر أنفتى وأمشى إلى أبيك متمرغاً فى عطفه ومرضاته؟ : : . وماذا كان من أبيك؟ . . . لقد رذلنى. فصممت على النسيان، أجل، على النسيان، فتمرد علىّ قلبى وفزع بى إلى العنف. وما كنت

أرضى بالعنف نختم به هوانا : ولكنها مكابرة أبيك . عفا الله عن أبيك . فهو قائدنا إلى هذا المصير المنكود !

وتبادر إليه أنه ظفر منها بمكمن الاقتناع . فروضها وصقل نشوزها . وإذا بها تدمدم بكراهة وقد ذهبت عنها سحريتها وطفرت ثورتها : يا قاتل ، أتدرى ما ارتكبت يمناك ؟ سفكت دم اثنين ، دمى ودم أبى . خطفت ابنة سليم العياش فمزقت عرض أبيها . وقد يكون أبوها مات مختنقاً بالفضيحة . وكيف تريد ممن قتلت أباها أن ترضى عنك ، وتأنس بك ؟ . . إنك لتطفىء فى صدرى شعلة الحب لتثير الغل . عُدْ بى الساعة إلى بيت مرى قبل أن تفيض أنفاس أبى على غضاضة ، عُدْ بى إليها إن تكن ذا مروءة وحمية . فإنك لتنفض يدك ، إن تفعل ، من جريمتين دنيئتين !

وفارت نزوات بهاء غندور وهو يلقى من نظيرة الخشونة الواخزة . قال وكل ما فيه يستصرخ النَصَفة : « أين الجريمة أيتها العانية وأنا أُريدك للسؤدد ، وأنا أدعوك إلى مشاطرتى حسبى وقلبى . لا ، لن تفيض أنفاس سليم العياش على هضيمة وأنت زوجة بهاء غندور . فإنى لمن الأمر على صدق معتقد .

فإذا رفعك بهاء من رثاثة الكوخ إلى نعمى القصر فإن أباك سيرتع فى دنيا تمور بلألاء النسب والنشب . انظرى ، انظرى إلى ما حولك من رياض وسهول . هذه كلها ستمسى رهينة كلمة تطلقها شفتاكِ . وسيكون بهاء غندور بين يديكِ عبداً ، ولكِ أن تشتهى ، وأن تغالى فى المشتهى، وعلىّ تحقيق شهواتك على سعة مداها . لم أبخل عليك باسمى وسمعتى ، فهل أبخل عليكِ بثرىّ مالى ؟ . . . المجرم ، ومن المجرم ؟ . . أ أنا أم أبوكِ ؟ . . من الظالم الطاغى ، أبهاء غندور أم سليم العيَّاش ؟ . . كونى على نزرة من إنصاف ، على رشاش من صدق ، واعلنى الحقيقة فى جلوائها . أ أرفعكِ من الجحيم إلى الجنة ، من البؤس إلى السعد، وأ كون ممزقاً عرض أبيكِ ؟ . . . ومن مزّق الأعراض ؟ . . أليس هـذا الشيخ النتن الخالع عليك حبوة الأنس ودفقة النور ؟ . . . لقد حمل بيده فضيحتى مشعلاً نزق اللهيب وانّف بها بيت مرى يذيع فى خدمى وأنصارى أنه هدم عزتى وهوى بى عن وقارى . وما حداه إلى المثابة ؟ . . ما جرّه إليها رفقه بك، ولا غيرته عليك ، بل كرهه لى . فأقامك مدرجة يرقى عليها إلى هدمى إشباعاً لحقد كاسح ، و إرواء لكيد أثيم . فما أنتِ لديه

غير عصا يضرب بها ، غير قذيفة للنسف . و بعد ذلك لا شيء ، لا شيء غير شظايا لم يبق من سبيل فيها إلى سبك وصقل .

لو كان أبوكِ محبًّا لكِ ، صادقاً فى حدبه عليك ، للقى مجده وكرامته فى ضمان غدكِ ، فى زفافكِ إلىّ . ولكنه غمرٌ جاهل ، حقود كنود . يرى مصلحته فى هدم مستقبلك وسعادتكِ . يمتطيك لتكونى وقوداً للاصطلاء ، ثم رماداً فى الموقد : هذا هو القاتل الأثيم . من لطخ يده بدمين وقتل روحين ، لا بهاء غندور الساعى لرفعة شأنك ، والنهوض بك من دنىّ خمولك !

وطغت الحماسة على منطقه فوهبت له بلاغة المقال . وتعالى صوته رهيباً حانقاً كالزعقة المرتجلة فى الليلة الساكنة الظلماء . فالمضض الملتاع ، والشعور الحىّ ، جلجلا فى بيانه . وكان له على نظيرة صولة الغازى ، الممزق الغشاوة عن العين الغلفاء . فآمنت ابنة سليم العياش بصدق حجته أبوها يريدها على خدمة مأربه . إلا أنها مع يقينها بصواب رأى بهاء ، ظلت ممسكة على عنادها . فمضت فى الذود عن أبيها تعصمه من شهوة تسخيرها لمطمعه . قالت : «لست أرضى الطعن على أبى، أنا ابنته وهو حرٌّ فى أمرى . لن أكون لك ما دام يأبى أن أكون لك . فلا

تتعب فى ما لا يجدى . عُدْ بى إلى الكوخ ، فإنى أوثره على دنياك . وكر سليم العياش على ضعته أحبُّ إلىّ من موئلك المنيف !

وغلبتها شؤونها فانهلّ مدمعها وجمجمت بعياء : وماذا تريد منى بعد ما خبا رونقى وجفّت نضارتى ؟ . . . ألا ترانى عليلة البدن تكاد تطير عنى حياتى ؟ . . . روحى على استصفاء ، فما انتفاعك بى ؟ . . . دعنى أرجع إلى أهلى وأطلق هناك أنفاسى . فلن يمتدّ بى الزمن إلى أمد رحيب . نصيبى من دنياى نصيب زهرة تفتحت فى بسمة الفجر وانقصفت فى ضحكة الصباح !

وشرقت بدمعها ، ووضح فيها ضعف مقالها وهلهلة عودها . فهى تناهض حبها لنصرة أبيها . فليست تريد أن يتمرغ ذلك الشيخ المرفوع الرأس فى القهر بعد التيه . ولو أعطيت أمرها لكانت لبهاء ، تطلق له يده فيها ، فلا تمانع فى طلبه ولا تدفع مقدوراً . ولكنها مظلومة بأبيها . فقال بهاء يعيد الكرة ، وقد لمس فى الفتاة طراوة فى الكفاح ووهناً فى الحجة : نظيرة ، لتكن الصرامة لنا رائداً . أنا واقف على ما يصطرع فيك من أضداد . فإن لحب بهاء غندور سلطاناً عليكِ ، ولمشيئة أبيك صولة على

نهيتك ، وأنت حائرة بين القوتين . ولا يطيعك عقلك فى
الإصغاء إلى قلبك ، وثمة إيلام أبيكِ ، ولا ترتضين أن تعيشى
بلا قلب . على أن إجلالك لولىّ نعمتك أكرهك على الكفران
بحبك ، فأذللتِ هواك فى مظاهرة العاتى المكابر فى طيش .
وإنى لأستطلعك ما يكون من سايم العياش وأنت تعودين إليه
بعد غياب عشرين يوماً عن كنفه ، ليس من يدرى أين قضيتها
ولا كيف قضيتها . أيجرع كأس المدلة وينام على ضريح الأنفة
والشمم ، أم ينتقم منك بقتلك ؟ . . . وسواء عفا عنك أم أراق
دمك فإنه لمغبون ، والعار لا يغسله دم ، ولا يذهب به نسيان .
فإن ناره لتظل على وهجها وإن كستها طبقات الرماد . على حين
أن عودنا إلى هذا الأب ، تشدّ بعضنا إلى بعض رابطة الزواج ،
يمحو كل وصمة ، ويجلو كل درن ، ويزيد فى لألاء الكرامة .
قد يغضب أبوكِ فور مثولنا أمامه زوجين متحدين بالحب
والأمانة . وقد يلعننا معاً ، ولا بد أن يلعننا تشفياً ، إلا أنه
لا يلبث أن يصفو ويثوب إلى الرشد . زواجنا لا يلقمه الشنار
ولا يبيحه للأفواه لوكة . فإن ابنته فى عصمة فتى أثير العرق ،
فما هانت ولا أثمت ، وأحدوثته فاحت أرجاً وإن يكن غلب

على أمره فى هذه المصاهرة . ولكن أيبدو لكِ مغلوباً على أمره وأنت زوج بهاء غندور ؟ . . . ما لنا وللغباوة تغشانا . متى كان يحلم أبوكِ بأن يزف ابنته إلى حفيد سادته ؟ . . . هذه نعمة لم يكن سليم العياش ليرقبها . ولكنه وقد أذاع قولته فإنه ليأبى أن يلتوى فيها ، كأن قولته على سخفها وغرورها آيةٌ محكمة ، إذا اختلَّت نبرة منها أظلمت عين الشمس وباتت الأرض هباءة فى العدم الكئيب !

فمضت فى ذرف الدمع لا تجيب . قال : أنا أشعر بما تنتفضين فيه من حيرة ، وبما يعروك من عذاب . ولكنى هنا لتفريج الكربة . ما دعوت إلى اختطافك لسوى إنقاذك . فإذا شئت أن تصدفى عن مرأى أبيك ، فلا يقرصك منه تنديد ولا يهولك زئير ، إذا راقك أن تحتجبى عنه ، فلا ترمسك منه شزرة ، فقومى نسابق الريح . الجو لنا ، والبحر لنا . لنبرح هذه الديار إلى حيث لا تعرفنا عين ، وانعش فى غمرة المسرة . لا كانت هذه السموات وهناك سموات أصفى ديباجاً ستظلها . لنرحل ،تعالى . ما لنا ولهذا البلد الضيق نختنق فيه . فداك قصور آل غندور وقراهم وبساتينهم . بسمة فى شفتيك أطيب جنى .

لا علينا إذا ضعنا فى خضم اللذاذات السميح ، نتقلب على نعمى وطفاء يخضبها الأمل !

وتهادت كلماته تسابيح مرنحة سكرى ، فهو يتغنى بحبه طليق الأعنة . فلا حاجز ولا قيد وله الدنيا على بسطتها . وهوت يده على زند الفتاة تشد بابنة سليم العياش إلى متناهى الآفاق . فأفلتت منه وهى تقول بغصة لهفى : « دعنى . لا تلمسنى . لست لك . ابحث عن سواى . الفناء العاجل يرقبنى سواء أقمت بجانبك أم زحفت إلى أبى . لم يبق من عمرى غير فضالة . من المحال أن أعيش ، وخصوصاً بعد اختطافك إياى . ليتك لم تفعل وقد حكمت علىّ بالموت الوشيك . ولست أُبالى الموت مثل تبكيت ضميرك وأنت تدفعنى بيمينك إلى المهواة » !

فاستدرت عبراته . قال وفى عينيه نفثات التياع بليل : « نظيرة ، ما هذا التطيّر من الغد ؟ . . . ما بالك لا تؤمنين بالسعادة ، لا تضحكين للهناء ؟ . . . ما بالك تعيشين بقلب ليل أسفع وتتشاءمين كالبوم ؟ . . . هذا الحب سقيته بيمينك فنما ، فما يهيب بك إلى القضاء عليه بيمينك ؟ . . . لو أعرضت عنى فى نظراتى الأولى إليك لنأيت عنك إلى حيث أستريح

ولكنك أجبتنى إلى عاطفتى فأحببتك . والآن وحبنا يوشك أن يزهر ، فليثمر . تعالى ، المجال فسيح لاقتناص السعادة . الأيام طوال للارتواء من الصبابات . لا تغيبى عنى فى غيوم حاكتها بادرة الطيش فى أبيكِ . هذه غيوم لا تثبت على لهثة تطولينها بها . فالحب الصادق يضيمه أن يتلاشى و يموت !

فلم تنجع فيها ضراعة . قالت : دعنى أذهب إلى أبى !

فاللجاجة فى الإفلات من الطوق لم تدمثها الملاينة . فصاح بهاء وقد طفر فيه النزق: وماذا تجدين عند أبيك ؟ . . فالذبح يرقبك ساعة تلوحين فى الكوخ ؟

فأعلنت بمضاء : وهذه شهوتى من زمنى ، ليقتلنى أبى . على أنى سأبلغه قبل أن أمط روحى أنى قمت على رغبته ، فما خرجت عنها فى بسمة غادرة ولا فى لفتة خؤون !

فدمدم: مجرمة ، أنت مجرمة . أبوك لا تمسين كرامته بخمشة أما من أضرمت فى قلبه النار ، من لوبت مدة جناحه وكان يغزو الأجواء ، من أذللت همته نخارت صبابة إليك ، فلا عليه إذا دعسته غير مأسوف عليه . أيتها الكافرة ، لقد أحرقت ، فأطفئى ناراً أضرمتها بيديك قبل أن تغورى فى تلافيف الظلام !

وكان يلهث كمن بذل مجهوداً فى عمل شاق . واصطبغت باصرتاه بالحمرة كالمنكوب بالرمد . واستندت نظيرة إلى الجدار وصات فيها دمعها يعلن بليتها . حبها لبهاء وطاعتها لأبيها يعتلجان فيها . وتعتعت وقد هوت فى الأرض : دعنى . . . أطلقنى من هذا الأسر . . . لن أكون لك حتى آخر نسمة من الحياة وأبى يمانع فى أن أكون لك . . . إذا قضيت نحبى فى هذا القفص فأبلغ أبى أنى مت على دينه ... لا تتعب فى المحال . . . حبنا فنى ... أتقترن بمن لا تهواك ؟

وسدت عنه أذنيها . فليست تقوى على إصغاء . ويئس منها فانصرف عنها وفى أعصابه غليان . ولم يكن يدرى كيف يفوز برضاها . وبات موقناً أنه يطلقها إلى الموت فى دفعها إلى أبيها . فلن تجد فى بيت مرى غير خنجر رهيف يأوى إلى نحرها دون احتشام . ويعيد الكرة . فقد يفقأ الدمل . ولكن لا رجاء . فالمأساة تتجدد فى كل يوم على مضض وخيبة . فتبدأ بنفار وتنتهى بنفار . نظيرة لن تكون لبهاء وأبوها يلج فى الممانعة . فذاب العاشقان وقد نشب فيهما الهزال . يتذلل لها فتشمخ . ويتوعد فلا تطأطىء من شموخها . فهى هى فى عنادها الغشوم . فدفع

إليها نساء يجدن تزويق الكلام لإقناعها بالعدول عن مكابرتها فأصرت على القول : ايذهب إلى أبي وليلتمس منه رضاه عن زواجنا وأنا بين يديه أمة . إن اقترانه بي لرضا السماء عنا . ولكن أبي لا يريد . وما يأباه أبي ان أقدم عليه . هذا دمي ليسفكه بهاء انتقاماً مني . فلست أحجب عنه دمي وهو له حلال !

وعلى هذه الوتيرة هلهلت ثلاثة أشهر بصباحها وعشاياها . بهاء يزحف إلى مودة نظيرة وابنة سليم العياش تلطمه بإعراضها ولم يكن بالعاجز فيها عن الإكراه . إلا أنه تجالّ عن التسفل إلى الاغتصاب في من وهب لها صفايا الجنان . فإن لم تستسلم إليه عن رغبة فلن يحاول فيها الإرغام وفي الإرغام خسة لا ترضى عنها المودة اللباب .

وتوالت على نظيرة الحسرات . فبليت بالغشيان وقد تعاظم فيها نحوها . ولم تكن تتذوق من الطعام إلا ما يبقيها على رمق . فاعتزمت أن تعيش حتى ترى أباها وتقص عليه حكايتها . بهاء دفع رجاله إلى إختطافها ولم يقو مع اختطافها على تشويه نضارة العفة فيها . سلخها من حضن أبيها نقية الصفحة وإنها لتعود إلى مدرج طفولتها نقية الصفحة . فلا ، ولا أثم . ولسليم العياش وقد وقف على جلي

غيبتها أن يقتلها اقتصاصاً منها و إن تكن بريئة الذهن مما حاك بهاء للاستئثار بها . إن كلمة أبيها لمبرمة فى مصيرها فلن تعترض عليها . وجل ما تنهد إليه أن توضح لهذا الأب أنها لم تدنس عرضه ، ولم تطرحه شلواً لفتكات الأنياب .

وتعب بهاء من الصراع المناهك العقيم ، فمال إلى إقرار نظيرة على طلبتها . فما دامت تلح فى العودة إلى أبيها مع كل ما تلقى من استرضاء فنلعد إلى أبيها . وأمسك عن انتهاك حرمتها على تناهيها فى إيلامه وصدودها . فلم يشأ تخديش طهارة الزنبقة بشمة . وزاد فى اقتناعه بتحطيم قضبان القفص المضروبة عليها ما يغشاها من غيبوبة إثر غيبوبة . فهاله أن تموت وهى فى قبضته وأن يكون الجانى عليها . لن يفوز بها . فلماذا يحاول فيها ما لا يطول به جدوى ؟

ودخل عليها فى إحدى الأماسى مقوس الظهر كأن فى عنقه حجر الرحى . وتدلى حاجباه فانسدلا على عينيه التائهتين يمعنان فى كسفهما . فهو وقد خانه جهده إستسلم إلى خذلانه ملتوى العزم ، مسترخى الأعصاب . وزحف إلى نظيرة كالمتعب بالوقوف على قدميه . وارتمى بجانبها وقد تلاشت فيه حتى النبرة . قال

بصوت يكاد يعلوه حفيف اللهثة : نظيرة ، أيقنت أن ليس لى عليك سلطان . أنت حرة . ستنقلك مركبتى الساعة إلى بيت مرى . فاستعدى . بلغت أمنيتك . حبك لأبيك يرجح على حبك لى عفواً عنى فى إساءتى إليك . عفواً ومغفرة . لم أكن أدرى أنك تنطوين على هذه الصلابة فى الرأى . سيرى بأمان . بهاء غندور حملك إليه على نقاوة ونصاعة ويعيدك إلى وكر درجت فيه على نقاوة ونصاعة. فأنت سليمة حتى من لمسة تخجلين بها . قومى إلى مدرجك ، فليس من يعوقك عن الرجعة . وإذا خطر لك يوما أن تقبلى بمطلق رضاك إلى ابن غندور فإن ذراعيه مفتوحتان أبداً لمعانقتك وقد ختم قلبه عليك . انصرفى . من المحال أن أعرف الهوى بعد شغفى بك !

وتهاودت كلماته ببطء الكابى الحسير كأنها تحبو فى موكب جنازة . وغالب نفسه على النهوض وليس يملك الهمة. ونادى إليه خادميه المقدامين ، خاطفيها من بيت مرى ، يخاطبهما باهجة شاءت أن تكون صافية آمرة فما أعطيت المكنة. قال : عودا بها إلى منزل أبيها !

ووقف منها بادى الإجلال ، كسير العين ، لا يلتفت إليها . فهو بين معجب وناقم . معجب برسوخها فى الحرص على نواهى

أبيها ، وناقم على خزيه فى حبها . وطالت عليه وقفة الخشوع .
ولما رفع عينيه ولقى نفسه وحيداً فى المنزل المهجور النائى ، وسمع
بأذنية هدير الدواليب فى السهل ، أدركه الجزع وندم على تسامحه
الوخيم . فإلى أين أطلقها ؟.. إلى المسلخ. فلابد أن يفتك بها أبوها
وانتصب شعره ، وجحظت عيناه ، وساده الرعب فركن إلى
الفرار . وكل ما فى المنزل يميل به إلى الفرار : الذكريات
المشئومة و إفلات نظيرة . وركض يلحق بالمركبة داعياً إياها إلى
الوقوف . وتعالى صوته وقد نفض عنه البحة . ولكن المركبة
كانت تغيب فى السهل كالزوبعة العارضة ، تهبّ جائحة ثم
تتوارى فى الأفق البعيد وقد أبقت بعدها دواراً من شده ، تخرس
به الألسن ، وتتيه العيون ، كأنها تتفتح على حلم بكىّ رهيب !

١٠

ذلك الكوخ المرتفع فى بيت مرى بخجله البليل ، لم تكن
تخفق فى حناياه نبضة تلتمع فيها المسرة . فهو ساكن كالموت ،
بارد كالضريح . قد تشق سماءه زفرة ، وتهز هدوءه أنّة ، على أنه
لايلبث أن ينكفىء إلى جموده ، كأنه من سكانه على قطيعة .

ومن يسكنه ؟ . . . سليم العياش وامرأته . فاقتعد كل منهما زاوية مستسلماً إلى شجونه وشؤونه . فالدمع لم يرحم سليماً ، بل أذله ، وقد سال على الخدين المتجعدين يمرح فى أرض بكر لم يسبق له أن غزا مراعيها . ويجلس سليم ورأسه بين يديه لا يرفع ناظريه للنور ، وأحياناً لا يفتحهما . بلى ، كان يطل آناً بعد آن من شباك فى الكوخ على البحر المنشور أمامه كصفحة من كتاب ، يخط سطورها القدر . وفي هذه الصفحة يقرأ سليم العياش ما يملي الزمن من كلمات ، وما يمحو من أثر . وكلما لاح له فيها دخان أدكن ، يشق الأفق ، متماوجاً كشعر الكاعب الناهد فى مهب العاصفة الجموح ، انتفض فى نفس والد نظيرة رجاء ، وومض في ذهنه أمل . هذه باخرة تقل سعيداً ونصيراً ابنه وابن شقيقته ، إلى شاطىء لبنان ، إجابة للدعوة الطائرة وانتصاراً للعرض المهضيم .

ولكن البواخر تنساب فى بطون الأمواج ، رائحة غادية ، وسعيد ونصير لا يظهران فى بيت مرى ، مع أن سليماً يرقب طلتهما بجلد المحموم . واتقى الاختلاط بالناس محاذراً أن تقع عليه الأبصار المنددة بالفضيحة ، المتهكمة بالمصيبة الغادرة . فأبى

أن يمشى فى القرية مثقلاً بعاره . فلن يبدو فيها إلا وقد نضا عنه الغضاضة الكاسية أحدوثته . ولم يكن يدلف حين تضيق به أنفاسه إلى سوى نادر الصراف صديقه . نادر وحده يتألم للظلامة ويتوفر على تضميد الكلوم برفق ونبل مؤاساة . وفى مسمع هذا الصديق ينفث أبو سعيد أوجاعه ومخاوفه . فيميل عليه نادر الصراف بالبلسم داعياً إياه إلى الثقة بالغد . فلابد أن تتبدد الغمائم ويصحو الجو .

وما أهمل سليم حراسة حقله ، والإشراف على غلة كرومه ، إلا أنه كان يقوم بعمله بوجوم وشبه غفلة . فلا يفكر حتى فى ما يبدر منه ، كأنه ليس فى دنياه . وعلاه الشحوب . وتناسى لحيته فطالت تجلله ببياضها كأنها تنسج له كفنه . على أن زاويته فى الكوخ مقره الدائم . فلا ينفصل عنها إلا لماماً ، كبريق النجم فى الليالى الدهم . وفى الزاوية ترين عليه وساوسه . ابنه وابن شقيقته لم يعالناه ما سوف يكون منهما . فهما فى صمت مهيب . أما وردت عليهما رسالته وقد أودعها بنفسه البريد ؟

وتعض قلبه نظيرة كلما فكر فيها . وهو يفكر أبداً فيها برهبة المرعوب . نزعت من مفرقه كل ما تألق فيه من أكلة غار

واستعدت عليه الدنايا . فما شعر بالذل مثله ونظيرة تطير عنه الى حيث لا يدرى ، بل هو يدرى ، ابنته آثرت عليه ابن غندور وفزعت إلى حماه ، لها الموت أتجحد أباها وتعقّه في سبيل لقمة مدمثة بالأفاويق ؟

وينام ولكنه ليس بالنائم . إنه لفى تخدير لانت به أعصابه . واستوى لديه الليل والنهار . فكلاهما ظلمة . وتساقطت الليالى على وتيرة واحدة فى سمعه وفى بصره . كأنها هدير طاحون ، فما تبدلت فيها نغمة . بلى ، لقد التقطت أذنه فى إحدى العشايا الجهم صدى خطوات صلاب بباب الكوخ . فلم ينهض للاستيضاح إلا أنه أرهف وعيه . وطرق الباب طرقات عنيفة جافة . فعوى سليم العياش : من ؟

فنبر صوت خفيض ، غير أنه خشن أنوف : نحن افتح !

هذه رنة صوت يعرفها ، ولكنه خشى فيها المضلّة ، فأعاد سؤاله : من ؟

— افتح وسوف ترى !

فاستند إلى الجدار ونهض متماسكاً على رجليه المرتجفتين ، فبدا بما عراه من نحول شبحاً تبدده زعقة . ودرج إلى الباب وفى

ذهنه أخيلة تتواثب . من المقبل ؟... ولم يكن على عيائه بالجبان ففتح وأطلق عينيه فى العتمة الخصبة . واستطاع أن يرى و يعرف مع صفاقة الحلكة . وهوى على العتبة وقد عرف وفى صدره الشهيق . لقد فوجىء بمن يرقب طلتهما . سعيد ونصير ، ابنه وابن شقيقته . وثبا اليه من العالم الجديد للانتقام للعرض المهتوك فلم تضل عنهما الرسالة المتظلمة .

وأضاءت أم سعيد السراج وكل ما فيها على رعشة . وما ترامت نظراتها إلى وحيدها حتى كادت ترتمى على البلاس المبسوط أمامها من هول المفاجأة . بيد أنها تمالكت وزحفت إلى سعيد كومة من لوعة . فانتفض فيها النواح يشكو الضيم وانحنى سعيد لتقبيل يد هذه الأم السمراء المتجعدة اليابسة . فضمته أمه إلى صدرها وقد لفت يمناها على عنقه وهى تقبله بفيض من دموعها وما ارتوت من تقبيله ، فكأنها تروم أن تدخر ما فاتها . وأذاب أنينها مقالها فتمتمت شفتاها يا حبيب أمك ، جئت تنقذنا من الداهية النافثة فينا سمها ؟ ... ما كنت أريد أن أراك على قلق وهضيمة !

وشدّت به اليها كأنها تود أن تسكنه فى حوانيها . وأدنته من السراج كى تتبين ملامحه . فإذا به تام الرجولة ، عريض

الألواح ، تموج فى قامته وطلعته النضرة . فعادت إلى ضمه وهى تغمغم فى سورة من دموع : لتقبر أمك ، كنت أشتهى أن أبعد هذه الكأس عن شفتيك . أنت لم تخلق لتشقى !

والتوت على نصير تقبله كما قبلت سعيداً ابنها . فالاثنان عديلان فى مودتها وحنينها . وكان الشابان قد حملا سليماً العياش إلى صدر الكوخ وهما على عبوس المنكوب بالكرامة . وفتح سليم عينيه ينفض عنه الصعقة ، وأجالها فى سيفيه ، ابنه وابن شقيقته ، فماجت فيه هزة الرضا . إنهما لمن الشباب فى الذروة . فقد أقبلا كما تمثلهما ، ثورة جارفة . ونهض إليهما يقول مستجمعاً قواه على رثاثتها : أجبتما الدعوة ؟... مرحباً بكما !... كوانى الانتظار أتدريان ماحل بنا ؟... إهانة وثبت بى الى القبر . فلا يدرك وقعها إلا من ذاق طعمها . ولكنى أبيت أن أموت إلا وقد محوت اللطخة عن عصبة العفاف . وحاولت أن أنتقم بنفسى انفسى ، غير أن همتى خانتنى فأقمت أرقبكما : بهاء غندور اختطف نظيرة ونظيرة أختك يا سعيد . معقد شرفك ، وخطيبتك يانصير مرجاة قلبك . أعددتها لك يا ابن أختى ، فجاء من يسلبك إياها ويطرحنا فى الشين والخزية !

فصهلا كالجياد فى يوم النقيع وقد تساقطت كلماته خناجر مسنونة فى نحريهما . وصرفا بأسنانهما وومض الشرر فى الأعين الأربع ، وغرزت أظفارهما فى راحاتهما . أين بهاء غندور ليمزقاه إرباً إرباً ويأكلا كبده امعاناً فى الانتقام والتشفى ؟... قال سليم العياش بصوت يغرورق فيه الدمع الخانق : أراد نظيرة للزواج فأبيتها عليه وهى محبوسة على نصير . فما كان منه إلا أن خطفها وفرّ بها لست أدرى إلى أين . وكل ما أدرى أنه خطف عرضنا وسلخ أنفتنا منا . نحن اليوم فى بيت مرى بمقام الأنذال . وعمد إلى التضليل وهو يختطفها . فدعاها الى تحبير رسالة زعمت بها أنها ملت الإقامة بيننا وفزعت إلى حيث تنسى ، وأين تنسى ؟ بين ذراعى الوغد بهاء غندور . سعيد ، نصير ، بهاء يجب أن يموت مذبوحاً بأيديكما ، بهذا تقضى أحكام الشرف فالقرية بأجمعها تنتظر أن ترىٰ كيف ننهض بصيتنا من العثار ، وكيف نغسل جباهنا من المعرّة ، أؤثر أن تقتلانى إذا لم تغمسا فى دمه خنجريكما . إن الهزء بنا ليعلونا ، والزراية بقدنا تجثم فى بابنا كأنها لنا عنوان وشعار !

فألهبهما بركاناً طاغياً . فزمجرا : له الويل ، أين بهاء ؟

— فى مزرعته فى البقاع ونظيرة بين يديه . بحثت عنها هناك ، عنده ، فلم أجدها . هو يخفيها . اقتلاه واقتلاها و إلا فلنمت أو فلنرحل . هذه قرية لم يبق لنا فيها عيش إن نحن غفونا على الفضيحة !

فماجت الأم تعترض ، فصاح بها أبو سعيد المتفجر الأوتار : إياك والتدخل فى ما لا يعنيك و إلا قتلتك بيدى . فلا يزال فى الأعصاب بقيا من عزم ترديكِ وتنقذنى من شؤمك !

فهدر سعيد : جئنا لإنصاف أنفسنا . فاللطخة لا يغسلها إلا الدم . وسنغسلها بالدم . ليعتمد أبى علينا !

وقال نصير : الموت للاثنين معاً . سنقتلهما ونرجع على الفور دون أن يدرى أحدٌ بنا !

فانتشى سليم العياش بما يسمع . قال : كنت موقناً أنكما لن تخيبانى فى محو اللطخة . عشتما . أمامكما الليـــل تجولان فيه وفى النهار هذا الكوخ مأواكما . و إذا اضطررتما إلى ارتياد البقاع فتنكرا ، وأنا الضمين أنكما تعيشان طويلاً بسركما !

وانتصب بعزيمة الشباب يجمعهما تحت جناحيه كالنسر بين الأفراخ . وضمهما معاً إلى صدره يقبل فيهما طراوة الوجنات على

صلابة العزيمة ، ويقول : اكفيانى شر الهوان . سُدّت على الطرق إلى ساحة القرية . أنا منذ غشيتنى النازلة سجين الكوخ ، لا أجرؤ على التفاتة إلى عين !

وتحسسوا خطواً يجلد التراب . هل درت القرية بعودة نصير وسعيد من العالم الجديد فنفرت إلى الكوخ تستبيح منه الوحشة ؟ ... وارتد سعيد إلى الباب يفتحه ويحاول أن يشق بناظريه مكتنز الدهمة . وتراءى له خيال يدلف إلى الكوخ كالمهدود الحيل . فصاح بغلاظة فى النبرة : من ؟

فكان الجواب رهيباً : أنا ... نظيرة !

فلا تردد ولا خشية . وكأن زلزلة فجأت الكوخ فماد . من قذف بالفتاة إليهم فى مثل هذه الساعة الرهيبة ؟ ... فكأنهم وأياها على موعد مضروب . ووثب عليها سعيد يمسك بشعرها ويجرها إلى الكوخ ويقفل الباب . فليس يريد أن تعلو الضجة ويسمع الجيران مع بعد الجيران عن الكوخ الأعزل . ووقف الجميع حيال نظيرة واجمين . وتبينوها بقلق ونقمة كم تبدلت . لا يكاد يبدو منها أثر لوسامة . لقد هزلت حتى أمست لا تعرف فكأنها من أشباح القبور . وانقضت عليها أمها تذود عنها بما بقى أفبها

الزمن من همة كالدجاجة المروعة في فرخها . فهاج سليم العياش والتفت إلى سيفيه المجردين للضرب والطعن يقول بنزق أبعدهاعنها!

فامتثلا ، وأوثقا الأم ، وضربا الكمامة على فمها وطرحاها فى حجرة نائية . فالموقف يدعو إلى الغلو فى الحذر . قال سليم العياش وقد ثمل بالظفر الدانى القطوف ، ولم يكن يرقبه سهل المغنم : العناية تسعفنا فى طلبتنا وتذلل أمامنا المشقة . ها هى الخائنة بين أيدينا . فرت من المنزل فوجب فيها الموت . هذا اقتصاص العدل منها ، بل هذه مشيئة السماء . اقتلاها على مرأى منى . إنى أشتهى أن أراها تختلج فى دمها . ما أرحم القدر وقد جنبنا العناء فى الاهتداء إليها !

وسمعت نظيرة وأدركت ما يريد أبوها فيها . وواثبها شقيقها وابن عمتها بمديتيهما تمرين ظامئين إلى النجيع النقيع . فرفعت يديها تشير إلى أنها تبغى الكلام ، بل هى صاحت تهيب بالمديتين إلى الجمود فى اليدين المتكلبتين عليهما : اقتلانى . الموت ذبحاً نصيب من أقدم على فعلتى . ولكن قبل أن تبطشا بى لا عليكما ، بل لا عليكم جميعاً ، إذا أصغيتم إلى حكايتى !

فالتفتا إلى أبيها يستوضحان . وكاد أبو سعيد يأبى عليها الإفاضة

بنأمة . فهو يشتاق أن يبصر بها على الفور تنزف دمها . لقد حنت أذناه إلى شخرة الذبح تعلو من حنجرتها . ولكنه ود الاطلاع على ما اتفق لها فى غيبتها . فمن هو خاطفها ، وماذا كان منه فيها ؟ . . قال بقسوة يغلى فيها السخط الراعد : لتتكلم !

فقالت نظيرة : لست أبغى اتقاء الموت . براحى المنزل إلى حيث لا يجوز لى أن أبرحه يفرض علىّ مدّ عنقى للذبح . بهذا يقضى العرف . وهذا هو الإنصاف . بيد أنى أرغب فى معالنتكم قبل موتى أن من أكرهت على مغادرة هذا المكان بشرفها تعود إليه بشرفها فما مسها إثم ، ولا حل بكم عار . فالعفة الناشئة عليها ظلت معتصمة بها . سامح الله من جرنى إلى حيث أقلقت منكم الشموخ والسمعة !

وحنت رقبتها للمديتين المتعطشتين للارتواء من نداوتها وهى تعلن باستسلام رضىّ : اقتلانى دمى لكما حلال . فكل ما كنت أطمع فيه أن أوضح لكما حالى . أما وقد فعلت فلم يبق لى حاجة إلى البقاء !

ولكن سليماً العياش أبى الاكتفاء بما سمع منها . فصرخ بها وهو يكاد يختنق بأضغانه : تكلمى أيتها المنغصة علينا صفو

العيش ، من خطفك من الكوخ ، و إلى أين خطفك ؟

فأجابت بهدوء يطفو عليه الجزم : حسبكم أن تعلموا أن شرفكم لم يثلم ، وأن عرضكم لم تدنسه المذلة . وهذه عنقي لتنتقموا مني . فاذبحوني !

فراعهم صفاء وجهها ومقالها . فما رهبت ولا استرحمت كأنها راضية بحكم الموت عليها ، بل كأنها لا تبالي الموت . وألح أبوها في معرفة اسم خاطفها ، فلم تلفظ هذا الاسم . فالحب الراسخ فيها أبى عليها أن تطرح من تهوى طعماً للشفار . فما كان من سليم العياش إلا أن هجم عليها بفورته العاتية وضرب مراراً رأسها بالأرض وقد تعالى فيه الزئير : افصحي ، لعنة السماء عليك ، من قادنا وقادك إلى العار ؟

فأصيبت بالخرس : لن تعلن اسم خاطفها . فاحترق سليم خيبة ومضضاً وتوالى فيه زئيره : من ؟ . . . من ؟

فكأنه يزعق في صحراء . و يئس من الوقوف على السر فتدفق بكلمات تغلي كأنها على فوهة بركان : سعيد ، نصير ، اقتلاها ، إني أخشى عليكما من الاختناق بسم أنفاسها . لتمت ولنكفن بجثمانها الوبيء ما شاننا به من أرجاس ! .

على أن الباب طقطق وتطايرت خشباته قبل أن تتكلم المديتان . وإذا فتى يقتحم الكوخ كالإعصار عارضاً على نصير وسعيد صدره وهو يفيض بالقول : قفا . لا تمساها بوخزة . أنا الجانى عليها . اقتلانى واصفحا عنها . أنا خاطفها . فانتقما منى ، منى وحدى . أما هى فعليكم أن تفاخروا بها نصاعة الأفلاك . هذه نبتة ريًّا تفوح طهراً ونبلاً . أقمت تسعين يوماً على إقناعها بأن تكون لى زوجاً فأعرضت عنى . لم ترض لأن أباها لا يرضى . انتقموا منى دون سواى وباهوا بالشمم والعفة وجه الشمس . هذه فتاة يشتهى ندى الصباح أن يستقى نقاوته منها !

فعرفوه . هذا بهاء غندور . وأدهشتهم منه استماتته فى الدفاع عن نظيرة . قال : أنا دفعت رجالى إلى اختطافها على كره منها ، وكتبت رسالة التضليل لإخفاء آثارها . لا تقتلوا البريئة من العيب والظنة ، بل اقتلوا الجانى الأثيم !

فمال سعيد ونصير إلى سماع رأى عميد الأسرة وراعيها الأمين فلم يتبدل سليم العياش ، قال بكلوحه اليبيس : اقتلاهما معاً . خطفها فأذلنا . وبرحت المنزل فاستحقت الموت !

فصاح بهاء : بل اقتلونى وحدى ، أنا المفترى على الطهارة والكافر بالأعراض ؟

وعلا صوت نظيرة معلناً : هو برىء من دعواه . اذبحونى وانقذوه من جريمة لا يد له فيها !

فارتجفت المديتان فى قبضتى نصير وسعيد . ماذا يفعلان ؟ .. وظهر المسخ فى سحنة سليم المياش . فهى تلال وأودية على أن سليما لم يخرج عن وعيه مع انقلاب ملامحه . فأعول : القتل للاثنين معاً . حياتنا بموتهما . أنقذانى من الدمامة الماثلة لعينى . يكاد من مرآها يتولانى الغشيان !

* * *

فى الصباح الباكر ، فيما القرويون فى بيت مرى يفضّون عن عيونهم الهجعة ، ويغدون إلى حقولهم على آمال فساح ، إذا جمود الذعر ينصبهم فى ساحة القرية أعمدة خرساء . وقد وقفوا أمام رأسين مقطوعين بجثمان فى عرض الساحة وقد خضبهما النجيع . وما تجرأوا إلا بعد لأى على الدنو منهما يعروهم الحذر والخوف . وتجلت لهم الأسارير فازدادوا رعباً . هذا رأس بهاء غندور سيد القرية ، وذاك رأس نظيرة العياش . فجمد الدم

فى العروق يعاند فى النبضة لفرط الهول . هذه صرعة العاشقين . وتلجلجت الألسن لا تنضّ بنأمة . فما انتفض غير القلوب .

وقد تواثبت فى خفقان هلوع حيال النازلة . بلى ، جالت العيون الجاحظة فى العيون الجاحظة تتبادل الارتياع الـكاسح ، وتكاثفت الصفوف كأن منادياً أذاع فى القرية النبأ ، ولـكن أين آل غندور وما أقبلوا ينظرون ما حلّ نزين شبابهم ، بلوائهم المنشور ؟ وأين سليم العياش يبصر بابنته مطروحة فى ساحة القرية مضروبة العنق ؟ لقد عادت الى القرية ، غير أنها عادت اليها رأساً بلا جسم !

•

وما للسؤال عن سليم العياش وهو القاتل ، فالجريمة فرضها الانتقام ، الانتصار للعرض ، وإلا فمن يروّع الحبيبين فى طمأنينتهما النشوى ؟ على أن إبلاغ سليم مصير ابنته مما لاغنية عنه ، وانحدر نفر من القرويين فى وثبة الشرر ينقلون إلى سليم نبأ الداهية ، وسليم على المصطبة ، تحت الدالية ، يدخن غليونه بلذاذة الناعم البال ، لقد طال انقطاعه عن هذه الهناءة ، ووقع النبأ بأذنه فلم يؤمن به ، قال منكراً ما يغزو مسمعه : ابنتى فى ساحة القرية مقطوعة الرأس ، ويحكم ، أى ثرثرة تهزكم ؟ هل ألم بكم جنون ؟

قالوا : رأسها يجثو فى التراب بجانب رأس بهاء غندور !

فأعلن بخبث : لقد حيرتمونى !

واشتعل مداسه وقبض على عصاه . ووثب إلى الساحة بهمة يعصف بها الشباب . فقد عادت إليه العزيمة الخائرة . وفى الساحة وقف أمام الرأسين وقفة غير المبالى ، كأنه تعوّد مرأى الحواطم الدوامي . ونكت رأس ابنته بالعصا الممسكة بها يمينه . وإذا به يهز رأسه هزة المرتاب على مشهد من القرية جمعاء ، ويقول بنبرة زادت فى طغيان الهول : لا ، هذه ليست ابنتى . ابنتى لا تنتهى إلى هذا الهوان !

وأدار للرأسين ظهره . وسلك طريقه إلى الكوخ بانتفاش وزهو والعيون المرعبة تصيح به : يا قاتل ، يا سفاك الدم !

فلم يلتفت إلى الوراء وليس من أثر فى الكوخ يدل على ارتكاب الجريمة . فقد غسل سعيد ونصير الأرض من الدم بعد قطع الرأسين . وهما هما حملا الرأسين إلى ساحة القرية دليلاً على استيفاء الانتقام حدّه . وأخفيا الجسدين فى كيسين وتزحلقا بهما إلى أدغال ست مرى يطرحانهما فى أعماق الكهوف . وتابعا مسيرهما إلى الشاطىء وقد نفضا عن السمعة الغبار الكامى

وأعادا الشرف إلى حرزه الحريز . أطلا فى مدرج الليل وغابا فى
لجمة الليل كالأشباح ، فليس من سمع ولا رأى .

وهوى سليم العياش فى جتمته وقد رجع من ساحة القرية مهيج
الخاطر ، قرير العين ، واستلقى على البلاس المبسوط تحت الداليا
يدخن غليونه الماتع وقد خلع عنه الضغيمة والمدلة . وابتسم وهو
يرى امرأته تنشج فى الزاوية ولا تجرؤ على رفع الصوت . فقد
انتقم للصيت المكلوم فتشفاه من جراحه و بات يقوى بعد الليالى
العجاف ، المكفهرة ، على الانعاس فى رقدة حالمة ، على المصطبة
الهانئة ، فيما الشمس تدغدغه بخيوطها الصباح ، الغوادن
المتساقطة إليه من كلوم الدالية ، مع العناقيد الزوج !